

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

كانون الثاني وشباط سنة ١٩٤٢ م

المحرم وصفر سنة ١٣٦١ هـ

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

دمشق

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي الدفع مقدماً { في سورية ولبنان ٣٠٠ قرش سوري
وفي جميع الاقطار ٤٠٠ » »

مطبعة الترقي بدمشق


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

اعضاء المجمع العلمي العربي

في سنة ١٣٦١ هـ ١٩٤٢ م

عدد	الاسم	محل الاقامة
١	السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي	دمشق
٢	الدكتور اسعد الحكيم	»
٣	الشيخ بهجة البيطار	»
٤	السيد خليل مردم بك	»
٥	〃 رشيد بقدونس	»
٦	〃 سليم الجندي	»
٧	〃 شفيق جبري	»
٨	الشيخ عبد القادر المبارك	»
٩	〃 عبد القادر المغربي	»
١٠	السيد عز الدين التنوخي	»
١١	〃 فارس الخوري	»
١٢	الدكتور مرشد خاطر	»
١٣	السيد معروف الارناؤط	»
١٤	الامير مصطفى الشهابي	»
١٥	الشيخ بدر الدين النعساني	حلب
١٦	〃 راغب الطباخ	»
١٧	〃 عبد الحميد الجابري	»
١٨	〃 عبد الحميد الكيالي	»
١٩	السيد سويريوس افرام	حمص
٢٠	الشيخ ابراهيم منذر	بيروت
٢١	〃 فؤاد الخطيب	»
٢٢	السيد بولس الخولي	»
٢٣	〃 عمر الفاخوري	»
٢٤	الفيكونت فيليب دي طرازي	»
٢٥	الشيخ مصطفى الغلاييني	»
٢٦	الدكتور نقولا فياض	بيروت
٢٧	السيد عيسى اسكندر المعلوف	زحلة (لبنان)
٢٨	〃 عارف النكدي	عبية (لبنان)
٢٩	الشيخ احمد رضا	جبل عاملة
٣٠	〃 سليمان ظاهر	
٣١	〃 سليمان احمد	اللاذقية
٣٢	السيد ادوار مرقص	»
٣٣	الشيخ محمد زين العابدين	انطاكية
٣٤	السيد محمد اسعاف النشاشيبي	القدس
٣٥	〃 عبد الله مخلص	»
٣٦	الشيخ رضا الشبيبي	بغداد
٣٧	الاب انستاس ماري الكرملي	»
٣٨	السيد كاظم الدجيلي	»
٣٩	〃 معروف الرصافي	»
٤٠	〃 طه الراوي	»
٤١	الشيخ محمد بهجة الاثري	»
٤٢	〃 مصطفى باشا عبد الرازق	مصر
٤٣	السيد عبدالعزيز البشري	»
٤٤	السيد خليل ثابت	»
٤٥	أحمد بك أمين	»
٤٦	السيد أحمد حسن الزيات	»
٤٧	〃 محمد لطفي جمعة	»
٤٨	الدكتور أحمد عيسى بك	»
٤٩	أحمد لطفي السيد باشا	»
٥٠	السيد خير الدين الزركلي	»

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

عدد	الاسم	محل الاقامة	عدد	الاسم	محل الاقامة
٥١	الدكتور أمين باشا المعلوف	مصر	٧٠	السيد هوتسما	هولاندة
٥٢	خليل مطران بك	«	٧١	» أراندونك	〃
٥٣	السيد عباس محمود العقاد	«	٧٢	» كرنكو	انكلترة
٥٤	الشيخ محمد الخضر حسين	«	٧٣	» بروكلمن	المانية
٥٥	السيد حسن حسني عبدالوهاب	تونس	٧٤	» هارتمان	〃
٥٦	الشيخ عبد الحي الكتاني	فاس	٧٥	» ميتفوخ	〃
٥٧	الامير شكيب أرسلان	لوزان	٧٦	» زترستين	السويد
٥٨	السيد عبد العزيز الميمني الراجكوتي	الهند	٧٧	» اوستروب	الدانيمارك
٥٩	〃 عباس إقبال	طهران	٧٨	» موجيك	فينا
٦٠	〃 مارسيه	تونس	٧٩	» ماهلر	بودابست
٦١	〃 ماسه	الجزائر	٨٠	» كوفالسكي	بولونية
٦٢	〃 كولان	رباط (مراكش)	٨١	» كراتشكوفسكي	لينينغراد
٦٣	〃 كي	»	٨٢	» موزل	براغ
٦٤	〃 دوسو	باريز	٨٣	» كرسيكو	فنلاندة
٦٥	〃 ماسينيون	»	٨٤	» ماكدونالد	أميركا
٦٦	〃 بوفا	»	٨٥	» هرزفلد	〃
٦٧	〃 آسين بلاسيوس	مجريط (اسبانيا)	٨٦	» فيليب حتي	〃
٦٨	〃 لوبس	لشبونة (البرتقال)	٨٧	الدكتور سعيد أبو جمرة	البرازيل
٦٩	〃 هيس	سويسرة			

اعضاء المجمع العلمي الراحلون

عدد	الاسم	محل الاقامة	عدد	الاسم	محل الاقامة
١	الشيخ طاهر الجزائري	دمشق	٣	السيد مالنجو	دمشق
٢	〃 مسعود الكواكبي	〃	٤	الشيخ سليم البخاري	〃

عدد	الاسم	محل الاقامة	عدد	الاسم	محل الاقامة
٥١	الدكتور أمين باشا المعلوف	مصر	٧٠	السيد هوتسما	هولاندة
٥٢	خليل مطران بك	«	٧١	» أراندونك	〃
٥٣	السيد عباس محمود العقاد	«	٧٢	» كرنكو	انكلترة
٥٤	الشيخ محمد الخضر حسين	«	٧٣	» بروكلمن	المانية
٥٥	السيد حسن حسني عبدالوهاب	تونس	٧٤	» هارتمان	〃
٥٦	الشيخ عبد الحي الكتاني	فاس	٧٥	» ميتفوخ	〃
٥٧	الامير شكيب أرسلان	لوزان	٧٦	» زترستين	السويد
٥٨	السيد عبد العزيز الميمني الراجكوتي	الهند	٧٧	» اوستروب	الدانيمارك
٥٩	〃 عباس إقبال	طهران	٧٨	» موجيك	فينا
٦٠	〃 مارسيه	تونس	٧٩	» ماهلر	بودابست
٦١	〃 ماسه	الجزائر	٨٠	» كوفالسكي	بولونية
٦٢	〃 كولان	رباط (مراكش)	٨١	» كراتشكوفسكي	لينينغراد
٦٣	〃 كي	«	٨٢	» موزل	براغ
٦٤	〃 دوسو	باريز	٨٣	» كرسيكو	فنلاندة
٦٥	〃 ماسينيون	«	٨٤	» ماكدونالد	أميركا
٦٦	〃 بوفا	«	٨٥	» هرزفلد	〃
٦٧	〃 آسين بلاسيوس	مجريط (اسبانيا)	٨٦	» فيليب حتي	〃
٦٨	〃 لوبس	لشبونة (البرتقال)	٨٧	الدكتور سعيد أبو جمرة	البرازيل
٦٩	〃 هيس	سويسرة			

اعضاء المجمع العلمي الراحلون

عدد	الاسم	محل الاقامة	عدد	الاسم	محل الاقامة
١	الشيخ طاهر الجزائري	دمشق	٣	السيد مالنجو	دمشق
٢	〃 مسعود الكواكبي	〃	٤	الشيخ سليم البخاري	〃

عدد	الاسم	محل الاقامة
٥	السيد الياس قدسي	دمشق
٦	: أنيس سلوم	"
٧	: جميل العظم	"
٨	: سليم عنحوري	"
٩	: عبد الله رعد	:
١٠	: أمين الريحاني	بيروت
١١	: حسن بيهم	:
١٢	الأب لويس شيخو	:
١٣	الشيخ عبدالله البستاني	:
١٤	السيد جبر ضومط	:
١٥	: عبد الباسط فتح الله	:
١٦	الشيخ عبد الرحمن سلام	:
١٧	السيد جرجي يني	طرابلس الشام
١٨	الدكتور صالح قنباز	حماه
١٩	الأب جرجس شلحت	حلب
٢٠	السيد جرجس منش	:
٢١	" قسطاكي حمصي	:
٢٢	الشيخ كامل الغزي	:
٢٣	السيد ميخائيل الصقال	:
٢٤	الشيخ خليل الخالدي	القدس
٢٥	السيد نخلة زريق	:
٢٦	الشيخ سعيد الكرمي	طول كرم
٢٧	: جميل صدقي الزهاوي	بغداد
٢٨	: محمود شكري الآلوسي	:
٢٩	: احمد الاسكندري	مصر
٣٠	احمد زكي باشا	:
٣١	احمد شوقي بك	:
٣٢	السيد أسعد خليل داغر	:
٣٣	حافظ ابراهيم بك	:
٣٤	الشيخ محمد رشيد رضا	:

عدد	الاسم	محل الاقامة
٣٥	السيد مصطفى صادق الرافعي	مصر
٣٦	أحمد كمال باشا	:
٣٧	أحمد تيمور باشا	:
٣٨	السيد مصطفى لطفي المنفلوطي	:
٣٩	الدكتور يعقوب صروف	:
٤٠	السيد اوجينيو غريفيني	:
٤١	" رفيق العظم	:
٤٢	الشيخ محمد بن أبي شنب	الجزائر
٤٣	السيد رينه باسه	:
٤٤	: ميشو بلاير	طنجة
٤٥	: زكي مغامز	الاستانة
٤٦	الحكيم محمد أجمل خان	الهند
٤٧	السيد فران	باريز
٤٨	: كليمان هوار	:
٤٩	: جويدي	ايطاليا
٥٠	: نلينو	:
٥١	: هومل	المانيا
٥٢	: ساخاو	:
٥٣	: هوروفيتز	:
٥٤	: مارتين هارتمان	:
٥٥	: مونته	سويسرا
٥٦	: سنوك هوغرنيه	هولاندة
٥٧	: مرجليوث	انكلترا
٥٨	: بفن	:
٥٩	: براون	:
٦٠	: بول	الدانيمارك
٦١	: بدرسن	:
٦٢	: اغناطيوس غولد صهير	بودابست
٦٣	الشيخ ابو عبد الله الزنجاني	زنجان

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامى

هل تمدّنا ؟ [1]

« ادعى بعض الهازلين ان مقياس تمدن أمة ما تنفقه من صابون وطوابع بريد ، وهذا التعريف الغريب غير كاف للابانة عن معنى التمدن ، فعلى الممدّن ان يعرف بعض اسرار القوى المحيطـة به ، وبقدر ما تكثر معلوماته من هذا القبيل يكون حظه من المدنية أوفر . والهمجي هو الذي لا يفهم شيئًا من أمور العالم ، أما نحن فقد فهمنا اكثر منه قليلاً قليلاً . ومنها ان معرفتنا بأن الجدَري مرض جرثومي ينتشر ولكن لا بفعل مَلك جبار ُيعدُّ من المدنية . وعِلمنا بأن خسوف القمر يحصل من اعتراض الارض بينه وبين الشمس ولا يخسف من فعل تنين يأكله ، ُيعد خروجًا من الوحشية بعض الشيء . والقول بأن الهواء ثقيل ويتألف من غازين مختلفين ينم عن بلوغنا درجة من الرقي العقلي .

« والواقع ان معرفة الأشياء أحياناً تستلزم امكان الانتفاع بها وتطبيقها على حاجاتنا ، فمتى عرف ان الجدري ينشأ من جرثومة وانا في امكاننا وقاية اجسامنا اذا اتقينا تلك الجرثومة بجرثومة اخرى ، فهذا يقال له تمدن لأنه جزء من معرفة الأشياء . وفي وسعنا بالاعتماد على هذه المعرفة نفسها ان نكون بمأمن من الجدري وان نبدد بعض اعراض البؤس الشديد .

« وهناك فرض آخر بسيط للغاية ذلك انا اذا ادعينا اننا نعلم الآن جميع الامرار التي يعرفها البشر بعد قرن فنحن اكثر تمدناً مما نحن اليوم ، ولنا أن نقول ان رجال هذا العهد اكثر تمدناً مما كان معاصرو ليوناردي فنشي ، ومن عاصروا هذا الرجل اكثر تمدناً من جنود اغاممنون . ولا يفهم من معنى التمدن فرط السعادة ابداً ، فقد يحدث ان يسيء الناس كثيراً استعمال المنافع التي أتاهم بها العمل العلمي المستديم فلا يحصل الانتفاع بالعلم . فاذا كانت الطيارات تستخدم خاصة في ضرب

(1) حديث القاه السيد محمد كرد علي في راديو فلسطين بالقدس يوم الخميس في ٤ رمضان سنة ١٣٦٠ و ٢ ايلول سنة ١٩٤١

المدن فالطيران اكتشاف مضر ، واذا كان من ارتقاء الكيمياء احداث غازات سامة تهلك سرية من الجند في بضع دقائق فالكيمياء علم ملعون . فالتمدن اذاً بالمعنى الصحيح الذي يدل عليه ، هو مقدار عظيم من السعادة تحف حياتنا البشرية ، ولا تقوم الا بمعرفة الأشياء وباستعمالها المفيد . والحاجة تستلزم فوق هذا ان يضم اليها ماله علاقة بالأخلاق كالتساند والاخاء الانساني وحرمة الحق . وحق ثابت ما اقترحناه من ان سعادة البشر تتوقف على ارتقاء المعارف خاصة .

« لا يقوم تمدن ولا رفاهية بدون معرفة طبائع الأشياء ، ولا تكون الحياة بغير هذا الا وحشية وفي أقسى وحشيتها ، فالواجب صرف العناية الى الخير لا الى الشر . وبعبارة أخرى ان العلم شرط ضروري للسعادة البشرية ويتوقف على أمور أخرى . ان فهم قليل من الأمور في العالم ضروري لسعادة الناس العظمى او لشقائهم ، وكل ارتقاء في العلم هو ارتقاء في المدنية ويعاون على سعادة البشر . »

هذا ما قاله العلامة شارل ريشه[1] في كتابه العالم . وعرّف الافرنج المدنية أيضاً بأنها وحدة مركبة من الأفكار السائدة والعادات الراسخة التي يعيش في سلطانها كل انسان عاش مجتمعاً مع غيره ، وفي كل مكان جمع أناساً كانت بينهم علائق مستقرة او متزلزلة ، وكان من هذه العلائق صفات وكفايات وبعض قوة او بعض ضعف ، ومن كانت حاله كذلك فصفه بأنه متمدن . والفرق بين الشعوب الهمجية والشعوب المدنية ما تمتعت به هذه من أوضاع سياسية وادارية وثروة عامة وثقافة أدبية وفنية وعلمية واستقلال نسبي وان يكون ثمت توسع في العمل وسير الى الامام في النظام الاقتصادي والعقلي والأدبي فالرجل المتمدن هو الذي يرمي ببصره الى المستقبل ، وهذا التعريف كاف لتمييزه عن المتوحش الذي يعيش كل يوم بيومه ، ويستهلك في الحال كل ما يستحصل ، ويسرف في قوته تلذذاً بالاسراف واللعب فقط ، وهو ابداً ينظر الى الماضي ويلهو بالحاضر ولا ينظر الى المستقبل . واختلفوا في

(1) Charles Richet: Le Savant (Dans les caractères de ce temps.)

كتاب العالم لشارل ريشه (من مجموعة أخلاق هذا العصر)

الأسباب التي تنبعث منها المدنية فقال بعضهم ان المدنية تنبعث من العنصرية وقال بعضهم انها من ثمرة الدين وقال كارل ماركس ان المدنية بمجموعها (التشريع والاسرة والفن والعلم والأخلاق الخ) هي محصول الأسباب الاقتصادية ومرآة العوامل المادية . وسأل بوكل المؤرخ الانكليزي هل كانت الثقافة العقلية او الثقافة الاخلاقية هي التي تساعد على انبعاث المدنية ورجح العامل الأول أي الثقافة العقلية [1] .

وبعد فقد توفرت بعض الأقطار العربية وفي مقدمتها مصر منذ القرن الماضي على السير في طرائق المتمدنين فبلغت بعد ثلاثة أجيال درجة عالية من التمدن ، وظل الجمهور الأعظم من بنيها على وحشيته ، فانفرجت مسافة التمدين بين ابن الريف وابن المدينة . وكذلك يقال في الشام فان المدنية دخلت مدنها وظلت البوادي ومعظم القرى على ما كانت عليه . وانك لترى في مصر والشام لعهدنا تمدناً لا يقل عن تمدن الشعوب الاوربية والى جانبه انحطاطاً عجيباً لا نسبة بينه وبين الترقي الذي بلغه سكان الحواضر .

لا جرم ان مظاهر الحضارة في كل بلد من بلدان الشرق والغرب متفاوتة ، فابن المدينة غير ابن القرية ابداً ، والتفاوت في مصر والشام عظيم جداً بين الحواضر والأرياف . وكلامنا نحصره في ذينك القطرين لانهما اول الأقطار العربية التي نهضت في العهد الأخير في هذا الشرق القريب . تباين شديد بين القروي والبلدي واكثر منه بين البدوي والحضري ، ولا يقل عنه الفرق بين المتعلم والجاهل .

قضى العلم الحديث على كثير من الخرافات كان الناس في العصر السالف يعدونها حقائق ثابتة لا تقبل الرد والنقض . كان الناس يعتقدون ان القمر يخسف بفعل حوت يهمّ بأكله وانهم اذا ضربوا له بما يفزعه يفلت من أنياب الحوت ، وان الارض واقفة على قرن ثور وانها ثابتة لا تدور . وان الطواعين

(1) Nouveau Larousse Illustré (Art. Civilisation)

قاموس لاروس المصور (مادة : تمدن)

Towner: La philosophie de la civilisation (Traduit de l'Anglais).

فلسفة التمدن لتوفنر (مترجم عن الانكليزية)

والاوبئة من فعل الجن ، ولا يعتقدون بالعدوى ولا يعترفون بوجود الجرائيم ، مع ان في السيرة النبوية احاديث تحذر من مداناة المريض ، وتقول بالنسمات المهلكة اي بالجراثيم ، وكانوا يتطيرون بالأيام والأناسي والحيوان والطير ، ويتيمنون بمن يقع من أنفسهم موقعاً حسناً او توهمهم المخيلة انهم مصدر للخير ، ويتطببون بالأدعية والتعاويذ ، ويحبون بالطلاسم والرقى ، ويؤمنون بالمغيبات والكرامات ، ويأنسون بالخرافات والخزعبلات . وقد بطل كل أولئك في البيئات المتعلمة ، ولم تخل بعض البيوت من بقايا محسوسة من هذه المعتقدات لأن عدد المتعلمين والمتعلمات من الأبناء والبنات أقل من الأميين والأميات .

كان الناس حاشا العلماء يحسنون ظنهم بالطرق والمشايخ فبطل هذا الاعتقاد في كثير من المدن والقرى . واذا ذكرت الآن أمام أناس وكانوا ممن أسعدهم الحظ بأن تعلموا التعليم الابتدائي او ممن عاشوا في بيئة راقية وسمعوا كلام المثقفين ضحكوا ممن يعتقد بها . وعلى هذا غدا الناس يستعملون عقولهم وكانوا مدة قرون يسلمون بكل ما سمعوا من كبير او ممن يعتقدون انه افهم منهم . وكان يهون على السذج ان يقضوا أياماً طويلة كل سنة لحضور الموالد وزيارة المشاهد وكان الناس في مصر وايران بل في فلسطين أيضاً يعطلون أشغالهم كل سنة للاشتراك بمولد بعض الأولياء وندبة أحد الشهداء ، فأبطلت الحكومات ذلك فعد ابطالها من علائم التمدن ، وكم من اعتقاد كان راسخاً في الصدور بقوة الجهل ، وتسلسله من الأجداد الى الأحفاد ، فعاق المرء عن التعلم والأخذ بالأسباب ، فنزع من الصدور ووقف المعتدلون من المتعلمين عند حد ما رسمته الشريعة من المعتقدات ونبذوا مازاد عليها وهذا أيضاً من التمدن .

كان جمهور الأمة يؤمن ايماناً غريباً بالسحر والتنجيم واستخراج البخت والفأل وتأثير العين ونفع الطلسمات والرقى فغدا اليوم ينكر صغار فتيان المدارس هذه الأمور ولا يسع آباءهم وأمهاتهم الا أن يقلدوهم في معتقدهم وهذا اعتراف ضمني من الأميين او ممن كان في طبقتهم بأن المتعلم أكثر معرفة ثم اكثر تمدناً ممن لم

يتعلم ولم يتثقف . كانوا الى عهد قريب يؤخذون بكلام كل من يقص عليهم غريبة فيعتقدون صحتها ويعظمون أمر من رواها ويعدون عمله من القربات فاضمحل كل ذلك ، وهذا أيضاً من المدنية حلّ العقل محل الجهل .

واذا جئنا نوازن بين حالنا اليوم وحالنا في أواخر القرن الماضي من حيث الاجتماع والتنظيم والبعد ما أمكن عن التخريف والاعتقاد بالمجهولات نشهد مغتبطين انا خطونا خطوات واسعة في خمسين سنة ما خطتها اكبر الأمم الحديثة تمدنا في مثل هذه الحقبة . وانا لنرى اليوم ابن الثامنة عشرة الذي درس الدروس الثانوية ارقى بعقله ومعرفته من معظم من يروي التاريخ أخبارهم ويشير الى انهم من العلماء والفضلاء . وعلى هذا ترى أهل الطبقة الوسطى الآن يعيشون عيشة تقرب من عيش أعظم الخلفاء في القرون الاولى للاسلام بما اقتبسوه من مقومات المدنية ونعموا به من خيرات الحضارة الحديثة .

كان المسلمون يزجون كل شيء من أمور الدنيا بأمور الدين فقصروا اليوم الدين على أعمال الروح والتفتوا الى دنياهم فأخذوا عن الغرب طرائقه في معاناة الأمور المالية والاقتصادية ، ينشئون المصارف والبيوت المالية والتجارية على أساليب غربية صرفة لا شأن للدين فيها ، واقتبسوا قوانين الغرب وانظمته وأوضاعه وما وجدوا حرجاً في ذلك كما اقتبسوا معظم مصطلحاتهم المدنية في البيوت والمجالس والموائد والمواسم والملاهي والملابس والآلات وغيرها . وكلما عمت هذه الأفكار والأوضاع البوادي كما عمت المدن ، وتناولها الأميون كما تناولها المتعلمون ، زادت سعادة البيوت وسعادة المجتمعات واطلق علينا اسم ممدنين .

من علائم المدنية ما نشهده في مراعاة الجمهور للنساء في الطرق والسكك الحديدية والترام والمقاهي والمطاعم والفنادق ، وكنّ منذ جيل موضع سخرية وامتهان ، وهذا ولا شك من آثار استمتاع النساء بحقوقهن في هذا العصر وتبدل عظيم في نظر القوم اليهن ، ومن علائم المدنية انهن يتمتعن اليوم بالطلاق كما كان ذلك خاصاً بأزواجهن ، أعطين هذا الحق وما خرج المشرع عن قانون الشرع الذي اغفل

اجيالاً بقوة الجهل واستبداد الرجال بالنساء . ومعنى هذا ان ما تتمتع به المرأة اليوم من الحرمة والكرامة اكثر مما كانت عليه في القرون الوسطى . ذكر ابن الفرات في تاريخه في حوادث سنة ٧٩٣ انه صدر مرسوم الامير الكبير في القاهرة بأن لا تخرج امرأة من بيتها الى التربة وان كل من وجد منهن في تربة من الترب وسطت هي والمكارى والحمار ، وألاّ يتفرج أحد في مركب في البحر وان من وجد في مركب احرق هو والمركب والنوتي فتحامى الناس ذلك في أيام العيد ولم يجسر أحد ان يتفرج ولم تجسر امرأة تطلع الى القرافة ولا الى الترب .

وذكر هذا المؤرخ في حوادث تلك السنة ان الامير الكبير كمشبغا نائب الغيبة في القاهرة أرسل جماعة من الاوجاقية السلطانية ومعهم جماعة من مماليكه فداروا الأسواق والقياسر والطرقات بالقاهرة وظواهرها فقطعوا اكمام النساء الواسعة بسكاكين كانت معهم وحصل لبعض النساء رجفة عظيمة لأنهم كانوا يأتون المرأة على حين غفلة ويمسكونها حتى يقطعوا كمها ، وبعض النساء وضعن حملهن من الرجفة وبعضهن سقط مغشياً عليه وامتنع النساء من لبس القمصان بالاكمام الواسعة وتفصيلها . قال المؤرخ ولو تم ذلك لكان خيراً عظيماً لكن النساء أعدن ذلك بعد حضور السلطان من الشام ! اهـ . جرى هذا في القاهرة أعظم مدن الاسلام مدنية في القرن الثامن كما شهد بذلك ابن خلدون المؤرخ العظيم .

ولك ان تعدّ في الممدنين كل من لا يؤذي جاره ولا مواكله ولا رفيقه ولا المارة مهما كانت درجاتهم في المجتمع ولا يعبث بقانون المجتمعات ، وكل من يعرف أين تنتهي حريته الشخصية وتبدأ حرية غيره . فمن يلزم التؤدة والوقار في الجوامع والبيع ودور التمثيل والموسيقى والاندية والمتنزهات ويظهر بمظهر المعتدل في شعوره وحركاته وسمته ، ونظافة ثيابه وأطرافه ، ويتحرج من ايذاء مثافنه بصنانه وبخره يعد من الممدنين ، وكذلك كل من لا يحدوه حب الفضول الى البحث في خصوصيات جاره ومواطنه ومساكنه الا اذا كان من وراء ذلك فائدة للمجتمع .

وكل من راعى القوانين العامة في بلاده يحسب رجلاً ممدناً ، وكل من تنظف وتجمل وتزين ، رجلاً كان او امرأة على شرط عدم الافراط في ذلك يعد ممدناً ، ومن يهون عليه خرق النظام ، فهو في أقصى دركات التوحش . واذا وقف المرء عند حدود الآداب العامة وصان لسانه عن استعمال الفاظ الفحش والبذاء واقتصر في كلامه العام على ما اذا أورده أمام العذارى لا يخجلن منه عدّ عمله عمل المتمدنين ، وكلما أدرك المرء الا سعادة له ولذويه الا اذا اهتم للصالح العامة اهتمامه بمصالحه الخاصة وان سعادة غيره سعادة له ، وان شقاء وطنه يزيد ان لم يشارك مشاركة فعلية في انهاضه وانه اذا لم يأت هذا مختاراً عدّ لصاً في أرضه يستمتع بخيراتها ويلقي على غارب غيره متاعبها .

مثال من تمدننا وتوحش أهل القرون الغابرة . ما اظن انساناً نظر قليلاً في كتب الأدب الا ورأى بعض شعرائنا يصدّعون الآذان بما قالوه في وصف الخلخال ، وما تغزلوا به وا كبروا من جماله ، وما أبدوا من عجبهم من حركته وسكونه . ومن لم يتصور ذاك القيد الثقيل في رجل المرأة لا يدرك مقدار العبودية التي فرضها الرجال على النساء في غابر الأزمان ، ولا يعرف مدى الوحشية وقلة الذوق من عد مثل هذه الحديدة اللامعة من المغريات . ما الخلخال في الواقع الا صورة صادقة من عصور الهمجية الأولى ، ومن تأمله حق التأمل يدرك مضرته التي أعجب بها الشعراء ، ويحكم على الذوق المنقهقر عندهم . الى اليوم ترون صورة من الخلخال في أرجل بعض الفلاحات في ريف مصر وريف الشام كما نجد الفتيات الصينيات يحصرن أرجلهن في أحذية ضيقة من الحديد حتى اذا شببن بقيت أرجلهن صغيرة دليل الجمال .

كلما فكرت في هذا الخلخال أجد فيه البشاعة كلها والهمجية كلها ، وكلما رأيت كيف اضمحل وجوده عند ساكنات المدن اليوم لا يخامرني شك في أننا قطعنا مراحل طويلة في سبيل المدنية . وكذلك كلما رأيت ذاك الخزام الذين يخزمون به انف الفتاة وقد بطل أيضاً استعماله في المدن ، ولم يبطل عند البدويات والقرويات في القطر المصري خاصة . ولم يبطل الى اليوم ثقب اذني الفتاة ليعلق فيها القرطان ،

ولم يبطل الوشم في اكثر الأرجاء العربية يسوّدون بالزرقة الساعدين واليدين والرجلين والوجه واماكن أخرى من الجسم الانساني فتظل مشوهة طول حياتها وتفقد كثيراً من جمالها ويشاركها في هذا التشويه الرجال .

كلما تأملت هذه التشويهات يحمل بها في الاكثر القويُّ على الضعيف، وقد اصبحت على توالي الاحقاب من الأمور المتعارفة التي لا تنكر ، احمد الله على انه خلقنا في هذا العصر وخلق لنا عقولاً نميز بها بين الجميل والقبيح والنافع والضار . ومن الهمجية جرأة النساء في مصر والحجاز على قطع جزء من جسم الفتاة لأمور يتوهمنها منها اذا شبت و كبرت ، يغيرون بذلك صنع الخالق مع مخلوقة لا تملك أمر نفسها . ومن المدنية ان تنبو عيون ابناء هذا الزمان عن هذه التشويهات والهمجيات . وكيف لا نعد ذلك من المدنية ونسجل اللعنات على من آذوا المرأة في كل حالاتها وما عدوا شائن أعمالهم بدعة . وكان الزوج يضرب زوجه ويشتمها ويضرب أولاده ويعبس في وجوههم بسبب وبلا سبب ويعامل المرأة خاصة معاملة قاسية لا ينظر اليها الا انها مملوكة .

هذا واذا عدلنا مع أنفسنا وقسنا تمدننا في مجموع صوره على القاعدة التي سنها الغرب للمدنين وجعلوها المعيار في التمدن نجد أننا أحسنا الى الآن بعض فروعه وأغفلنا بعضاً وتلقفنا بعضاً . ردوا عوامل التمدن الى ثمانية أبواب [1] كما ردها العلامة وايل دوران المؤرخ الاميركي . الاول منها العمل من زراعة وصناعات وتجارة والثاني تأسيس حكومة منظمة تضمن حياة الاسرة والجماعة وسن القوانين وحماية الحياة والثالث الأخلاق والفضائل والرابع الدين من حيث هو عامل في المدنية يستخدم الاعتقاد بما وراء الطبيعة لتسكين الألم وتربية الخلق وحفظ النظام ومداواة الاوهام الاجتماعية والخامس العلم ويراد به النظر الصحيح الى الاشياء وصحة الملاحظة والعمل على جمع المعلومات التي يتكون منها على طول الزمن معارف ينتج منها بعض معرفة

(١) تاريخ التمدن لوال دوران(منقول عن الانكليزية)

Wiil Durant: Histoire de la civilisation (Traduit de'l Anglais.)

تؤثر في مصير المرء وتنفع في مدّ سلطانه على العالم والسادس عامل الفلسفة التي هي من وضع الانسان للوقوف على بعض أمور من هذا النظر الاجمالي من العالم والوصول الى حقائق الأشياء ومعرفة الحق والجمال والفضيلة والعدل المنبعثة من كبار الرجال والحكومات الصالحة والسابع الآداب وبها تنشر اللغة وتربى الناشئة ويرتقي الشعر والتمثيل وينقذ تراث الأجداد من العفاء والثامن الفن والمراد به تزيين الحياة بالألوان والألحان والأشغال ٠

سيداتي سادتي « هذا ما يتسع له المقام لوصف المدنية ودرجتنا منها وعسى ان يجزل حظنا منها في الجيل القادم فان الأعوام التي قضيناهـا في تلقف المدنية قليلة بالنسبة للأعوام التي مرت على الغربيين ٠



ابو العلاء المعري والحشر

حسد العلماء ابا العلاء على فضله

خطأ العلامــة الزمخشري في تقوله على ابي العلاء
خطأ العلامــة اليافي فيما نسبــه الى ابي العلاء
خطأ الدكتور طه حسين فيما ذهب اليه في ابي العلاء

جرت سنة الله في خلقه ان لا يرمى من الشجر بالحجر الا أطيبه ثمراً · وان لا يعذب بالسجن من الطير الا اجملها لوناً او أطربها صوتاً

وفي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف الا الشمس والقمر

وعلى هذه السنة جرى الناس ولا سيما العلماء منهم · فقلما رأينا رجلاً نبغ في علم او ضرب في العبقرية بسهم الا وقد قيض الله له طائفة من أمثاله يحرفون كلمه عن مواضعها ويصرفون اقواله عما يريد منها الى ما يريدون ويؤولون كلامه بما يشوه وجه الحقيقة فيها ، كل ذلك ليثيروا عليه الدهماء ويجعلوه عرضة للمؤاخذة والانتقام ويغضوا من كرامته

ولدينا من رجال التاريخ الوف من العلماء الأفذاذ رموا بالالحاد واتهموا بالزندقة ونسبوا الى المروق من الدين وهم أصح عقيدة ممن رماهم واكثر اعتصاماً بالدين ممن نفاه عنهم · وحسبك دليلاً على هذا ما تراه في اقوال العلماء والمؤرخين في أبي نصر الفارابي وابن سينا والغزالي وابي حيان التوحيدي وابن رشد وابن عربي وأمثالهم ممن رفعوا منار العلم وشيدوا صروح الحكمة

واذا بحثت عن هؤلاء الطاعنين في أولئك العباقرة ونقبت عن الأسباب التي حملتهم على النيل منهم اتضح لك ان الفئة الطاعنة بين معاصر يحسد معاصره على ما آتاه الله من فضله فهو لا يألو جهداً في الكيد له والافتراء عليه ولا يدخر وسعاً في اطفاء نوره · ليظهر بذلك فضله ويقوم مقامه

وبين متأخر يحب الظهور على رفات المتقدمين فيدفعه الحسد الى ان يتسقط

هفواتهم ويعظم الصغير من عثراتهم ، ويتصرف في حمل اقوالهم على الوجه الذي بعينه على الطعن فيهم ، وهناك فريق من المتأخرين إمعة يتابع كل قائل فيما يقول ويشايع كل راء فيما يرى وهذا من شر الناس على العلماء وأشدهم وطأة على النوابغ

وربما كان ابو العلاء من اكثر الفضلاء حساداً وربما كان حساده من أشد الناس نقولاً عليه وتحريفاً لأقواله

ولعل القارئ يعد هذا القول ضرباً من الاسراف والغلو فأنا أورد بعض الأدلة على صدق ما اقول حتى لا يظن ظان اني اتعصب لأبي العلاء او اتوسع في الاعتذار عنه او أتزيد للذود عنه . الدليل الأول

ذكر ابن العديم في الانصاف والتحري . ونقله عنه ياقوت في معجم الأدباء ج ١ ص ١٧٩ ان اباالعلاء كان يرمى من اهل الحسد له بالتعطيل ، وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه وايثاراً لاتلاف نفسه فقال ... ثم أورد ابياتاً لأبي العلاء في ذلك .

وذكر ابن العديم ان رجلين كانا يؤلبان عليه وينسبانه الى الكفر والالحاد وقد حرفا بيتاً من لزوم ما لا يلزم عن موضعه ليثبتا عليه الكفر بذلك فكتب رسالة الضبعين الى معز الدولة ثمال بن صالح يشكو اليه ذلك .

وطعن عليه جماعة في أبيات من لزوم ما لا يلزم ونسبوه الى الكفر فوضع كتاب زجر النابح ليرد عليهم ويبين وجوه الابيات ومعانيها ثم طعن عليه آخرون في أبيات أخر فوضع كتاب نجر الزجر أو بحر الزجر فبين التحريف ووجوه الأبيات .

وحسبك من هذا النوع ما قالته جماعة من العلماء في كتابه الفصول والغايات فقد زعموا انه عارض به القرآن ونسبوه الى الكفر والزندقة والالحاد بسببه وليس في الكتاب شيء مما زعموا وقد طبع الجزء الأول منه وهو على طرف الثمام ممن اراد الالمام به

الدليل الثاني

كان ابو العلاء في بغداد فتوفي الشريف والد الرضى والمرتضى فرثاه ابو العلاء بقصيدة قال فيها

الموقدي نار القرى الآصال والأسحار بالاهضام والاشعاف
حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف

والبيت الثاني من اجمل ما قيل في وصف النار وسطوعها في الدجى وتشبيه الشرارة بالطراف على غاية من الروعة والابداع ثم مضى في وصف النار وصفاً يقصر عن مثله البصراء ، ومراده من ذلك كله وصفهما بالكرم والاطعام وهذا سبيل البلغاء في ذلك العصر والذي قبله

فجاء العلامة الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ وقال في تفسيره الكشاف [عند قوله تعالى انها ترمي بشرر كالقصر] قال ابو العلاء · حمراء ساطعة ·

ثم قال فشبهها بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحمرة وكأنه قصد بخبثه ان يزيد على تشبيه القرآن ولتبجحه بما سول له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته بقوله حمراء توطئة لها ومناداة عليها وتنبيهاً للسامعين على مكانها · ولقد عمي جمع الله له عمى الدارين عن قوله عز وعلا كأنه جمالات صفر فانه بمنزلة قوله كبيت أحمر على ان في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيهاً من جهتين من جهة العظم ومن جهة الطول في الهواء وفي التشبيه بالجمالات وهي القلوس تشبيه من ثلاث جهات من جهة العظم والطول والصفرة فأبعد الله اغرابه في طرافه وما نفخ شدقيه من استطرافه ·

هذا كلام الزمخشري · واذا تأملت ابيات المعري لا تجد فيها تعرضاً لذكر القرآن ولا معارضة لتشبيهاته ولا شيئاً يتصل بالقرآن او تشتم منه رائحة المعارضة ·

واذا تأملت قول الزمخشري لا تجد مناسبة لذكر بيت المعري على هذا الوجه ولا سبباً داعياً اليه ولا تجده في طعنه بالمعري موفقاً · ولذلك انكرت عليه جماعة من الفضلاء قوله هذا · منهم صدر الأفاضل الخوارزمي فانه نقل قول الزمخشري ثم قال : ولا ادري من أين له انه قصد الزيادة على تشبيه القرآن فمن المعلوم ان القصر أعظم من الطراف ولكن الزمخشري مع فضله كان حديد المزاج كثيراً

ومنهم العلامة فخر الدين الرازي فانه ذكر في تفسيره مفاتيح الغيب ج ٨ ص ٣١٧ بيت المعري ثم قال زعم صاحب الكشاف انه ذكر ذلك معارضة لهذه الآية . وأقول كان الأولى لصاحب الكشاف ان لا يذكر ذلك . ثم ذكر اثنى عشر وجهاً يفضل بها تشبيه القرآن على تشبيه المعري بأسلوب ينم على فضل وعلم وابتعاد عن الحسد واللؤم

وأنا أقول ان أبا العلاء لما نظم هذا البيت لم تخطر في باله هذه الآية الكريمة ولادارت في خلده معارضتها اوالزيادة عليها ولو كان شيء من هذا لتأثر بلفظها اومعناها

ومن البعيد ان يحاول ابو العلاء معارضة القرآن وهو القائل في رسالة الغفران ص ١٥٨ ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالاعجاز ولقي عدوه بالإرجاز ماحذي على مثال ولا أشبه غريب الامثال ... ما هو من القصيد ولا الرجز ... ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ... وان الآية منه او بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون كالشهاب المتلألئ في جنح غسق والزهرة البادية في جدوب ذات نسق .

وبهذا القدر يتضح ان الزمخشري على جلالة فضله تقول على ابي العلاء وتأول كلامه على وجه لم يكن له به علم ولا رضى وتغاضى عما في البيت من جمال التأليف وروعة التشبيه وان كان دون كلام الخالق في ذلك كله

الدليل الثالث

استشهد جلال الدين القزويني المتوفى سنة ٧٣٩ في بحث تقديم المسند اليه من كتابه تلخيص المفتاح بقول ابي العلاء

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

فقال السعد التفتازاني في شرحه المختصر . يعني تحيرت الخلائق في المعاد الجسماني والنشور الذي ليس بنفساني بدليل ما قبله

بان أمر الإله واختلف النا س فداع الى ضلال وهاد

يعني بعضهم يقول بالمعاد وبعضهم لا يقول به . هذا ماقاله السعد .

ثم جاء العلامة البناني فقال في التجريد ج ١ ص ١٨٨ لا يبعد ان يكون تقديم القول بالمعاد في تفسير البيت [مع ان الظاهر هو اللف والنشر المرتب] ايماء الى ان مراد الشاعر بالداعي الى الضلال هو القائل بالمعاد بناء على ما اشتهر في التواريخ من ان أبا العلاء ملحد منكر للحشر ويومئ اليه ببيته المشهور عند من له ذوق سليم وهو قوله

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

ونقل ذلك عن الغزي . فانظر كيف تأول هذان العالمان قول المعري تأولاً فاسداً بناء على ما اشتهر عنه مع انه يصرح في القصيدة التي منها البيت الأول بالحشر بقوله

انما ينقلون من دار اعمال الى دار شقوة او رشاد

والبيت الذي ادعيا ان فيه ايماء ليس فيه ايماء الى انكار الحشر بل صرح بالنار في البيت الذي قبله وهو

تناقض مالنا الا السكوت له وان نعوذ بمولانا من النار

ولا شك أن المراد النار في الآخرة وهو تصريح بالحشر

الدليل الرابع ان ابا العلاء قال في لزوم مالا يلزم

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة ان يبكوا

يحطمنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

ونسب اليه جماعة هذه الأبيات

ريب الزمان مفرق الإلفين فاحكم إلهي بين ذاك وبيني

انهيت عن قتل النفوس تعمداً وبعثت تأخذها مع الملكين

وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان أغناها عن الحالين

ومنهم من روى البيتين الأخيرين فقط وفي بعض الروايات اختلاف وليس شيء من هذه الأبيات الثلاثة في لزوم مالا يلزم ولا في شيء من كتب ابي العلاء التي وصلت الينا .

فاتخذ جماعة من العلماء من هذه الأبيات حجة على كفره وانكاره الحشر وطبع على غرارهم صاحب ذكرى ابي العلاء وزاد عليهم بيتاً آخر استدل به على شك ابي العلاء في الحشر وهو

يا مرحبا بالموت من متنظر ان كان ثم تعارف وتلاق

كما زاد عليهم اذ جعله مرة يثبت الحشر كما في ص ٢٩٤ من تجديد ذكرى ابي العلاء وثانية ينكره نصاً وثالثة يقف موقف الشك ورابعة يجزم بمذهب افلاطون وخامسة أنه نفاه اكثر من ستين مرة في اللزوم من غير ان يبين واحدة منها ثم ختم كلامه بقوله الروح الفلسفي يثبت لنا ان ابا العلاء ان لم يكن قد أنكر البعث انكاراً تاماً فقد شك فيه شكاً شديداً ٠

واذا نظر الانسان نظر العاقل المنصف في البيتين الأولين : ضحكنا وكان الضحك ٠٠٠ لا يرى لها علاقة بالحشر ولا فيهما دلالة على اثباته وانكاره وانما جرت عادة البلغاء ان يجعلوا الزجاج مثلاً أعلى في الضعف وسرعة التكسر ٠ وفي عدم الجبر ومن الأول ما جاء في الحديث الشريف رويدك رفقاً بالقوارير أراد النساء وشبههن بالقوارير من الزجاج لأنها يسرع اليها الكسر

ومن الثاني قول حسان بن ثابت

وامانة المري حيث لقيته مثل الزجاجة صدعها لا يجبر

وقد درج ابو العلاء على هذه الطريقة فشبه الناس بالزجاج في سرعة التحطم والعجز عن المقاومة والجلد في هذه الحياة الدنيا ومن كان هذا شأنه فيها فجدير به أن لا يضحك في دنياه بل يبكي ثم ذكر ان بين الناس والزجاج فرقاً وهو ان الزجاج يمكن ان يسبك في هذه الدنيا فيعود الى حالته الأولى والناس لا يمكن ان يجبروا فيها اذا حطمهم الزمان بالموت ٠ هذا ما يدل عليه هذا اللفظ

ومن البدهي ان الزجاج لا يسبك في الآخرة وان المعري لا يريد هذا المعنى وليس في الكلام ما يدل على الآخرة او يتعلق بها وانما هو تحذير من الدنيا وبيان

لتسلط صروفها القاسية على الناس · فتعين ان يكون المراد ان ليس لنا سبك في الدنيا يعيدنا الى حالتنا الأولى فيها وبهذا نخالف الزجاج · وهذا قول حق لاريب فيه · ونظيره قول ابي العلاء في لزوم ما لا يلزم

أرى الشهد يرجع مثل الصبر فما لابن آدم لا يعتبر
وخبره صادق في الحديث فان شك في ذلك فليختبر
وجبر وكسر له في الزمان ويكسر يوماً فلا ينجبر

وهذا يوضح المراد من البيتين الأولين لأن قوله وجبر وكسر في الزمان يدل على انه يريد بقوله لا ينجبر في الدنيا ومن قبيل قول ابي العلاء هذا قول علي ابن ابي طالب [ض] فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل فانه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق · وقوله أيضاً · أولم تروا الى الماضين منكم لا يرجعون · · · فان المراد الرجعة في هذه الدنيا والا كان علي [ض] منكراً للحشر وقد استعمل ابو العلاء سبك الزجاج في مواطن كثيرة من شعره كقوله

تحفظ بدينك يا ناسكاً يرى انه رابح ما خسر
فلست كغيرك أطلقت في حياتك بل انت عان أمر
وللسبك رد كسير الزجاج ولا يسبك الدر ان ينكسر

وقوله

يسبك الصائغ الزجاج ولا يسـ ـطيع سبكاً للدر ان يتشظى

وأعاد هذا المعنى بقوله

خف يا كريم على عرض تعرضه لعائب فلئيم لا يقاس بكا
ان الزجاجة لما حطمت سبكت وكم تكسر من در فما سبكا

وهو في جميع هذه الأبيات واشباهها يشير الى ان النفيس اذا كسر لا يجبر بخلاف غيره ومن البين انه لا يريد كسراً ولا جبراً في الآخرة وانما يريده في الدنيا ·

وأما الأبيات الثلاثة التي على روي النون فان اسلوبها يدل على انها مصنوعة

على لسان المعري وانها ليست من سِنخ شعره · ومن البعيد عن أدب المعري ان يقول فاحكم إلهي ··· ثم يقول · أنهيت عن ···وزعمت ··· اذ لم نر في كلامه الذي يخاطب ربه به مثل هذا النمط ·· واذا سلمنا انها من كلامه فهي وان دلت على اساءة ادب في الخطاب لا تدل على انكار الحشر وانما تدل على اثباته لأن قوله ما كان اغناها عن الحالين صريح في اثبات الحالين لها واحدهما المعاد الثاني وهو الحشر

وأما البيت الأخير الذي استدل به صاحب الذكرى على الشك فانه من قصيدة مطلعها

أما الحقيقة فهي اني ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاق

ثم قال فيها

سيموت محمود ويهلك آلك ويدوم وجه الواحد الخلاق

يا مرحباً بالموت من متنظر ان كان ثم تعارف وتلاق

وليس في البيت تصريح بانكار الحشر اوالشك فيه وانما الشك في التعارف والتلاقي وهما غير الحشر اذ قد يجوز ان يكون الحشر ولا يكون فيه تعارف وتلاق فلا يلزم من الشك فيهما الشك فيه فهو نظير قول النابغة

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً به ان كان تفريق الأحبة في غد

فانه يفيد الشك في التفريق لا في غيره · وبعد هذا فان بيت ابي العلاء مسوق للترحيب بالموت على تقدير ان يكون هناك تعارف وتلاق ومفهوم هذا انه اذا لم يكن شيء منهما فانه لا يرحب بالموت · وهذا لا يوجب شكاً في البعث ولا في غيره وقوله في مطلع القصيدة · والله يعلم بالذي انا لاق واضح في انه يريد ما يلقاه في الآخرة لأنها دار الجزاء فهو جازم باللقاء وان جهل عين ما سيلقى

ولقد فتشت فيما انتهى اليَّ من كلام ابي العلاء في جميع اطوار حياته فلم أر فيه ما يدل على شك في البعث او انكار له وانما رأيت فيه مئات من المواطن التي

صرح فيها بالحشر والنشر والقيامة والحساب والجنة والنار ونحو ذلك مما يتصل بالآخرة

من ذلك قوله في سقط الزند ج ١ ص ١٤٠

فلو زار أهل الخلد عتبك زورة   لأوهمهم ان الجنان جحيم

وقوله ص ١٩٤

فيا ليت شعري هل يخف وقاره   اذا صار أحد في القيامة كالعهن

وهل يرد الحوض الروي مبادراً   مع الناس ام يأبى الزحام فيستأني

• • •

ومـا استعذبته روح موسى وآدم   وقد وعدا من بعده جنتي عدن

وقوله ص ٢٠٨

ولا تنسني في الحشر والحوض حوله   عصائب شتى بين غر الى بهم

لعلك في يوم القيامة ذاكري   فتسأل ربي أن يخفف من إثمي

وقوله ص ٢١٠

انما ينقلون من دار أعمـا   ل الى دار شقوة او رشاد

وقوله في ج ٢ ص ١٢

جازاك ربك بالجنان فهذه   دار وان حسنت تغر بسحتها

ضل الذي قال البلاد قديمة   بالطبع كانت والأنام كنبتها

وامامنا يوم تقوم هجوده   من بعد ابلاء العظام ورفتها

وقوله ص ٦٠

نبذت مفاتيح الجنان وانما   رضوان بين يديه للاتحاف

وقوله ص ٥٤

فان استطع في الحشر آتك زائراً   وهيهات لي يوم القيامة أشغال

وقوله ص ٨٩

سألت متى اللقاء فقيل حتى   يقوم الهامدون من الرجام

فليت أذين يوم الحشر نادى فاجهشت الرمام الى الرمام

وقوله ص ١١١

فلا كان سيري عنكم سير ملحد يقول بياس من معاد ومرجع

وقوله ص ١٢٠

فان لقيت وليداً والنوى قذف يوم القيامة لم أعدمه تبكينا

وقوله في الدرعيات ص ١٧٦

لعله ان يجيء مدرعا يوم رجوع النفوس في الرمم

وقوله ص ١٧٧

او عملُ الكفر من يُدين به في البعث إبان مجمع الأمم

وقوله ص ٢١٦

فلا تستكثر الهجات فيها فأعراس بتلك دخول جنة

وفي ملقى السبيل كثير من ذكر الآخرة والجزاء في النظم والنثر كقوله

نمت عن الأخرى فلم تنتبه وفي سوى الدين هجرت الكرى

وقوله : وفي الآخرة يكون المجمع . وقوله : والنهج للآخرة يسلك . وقوله : ولاقتهم الآخرة بما نووا .

وكتاب الفصول والغايات طافح بما يدل على الآخرة وما فيها كقوله لله الغلب واليه المنقلب : وقوله . تارك الصلاة من صُلاة السعير . وقوله : كفيني رب شقاء الدنيا فاكفني شقاء الآخرة . وقوله : الشقي من حضر عرصات القيامة . وقوله : واجد ثوباً للآخرة تكتسيه .

وفي رسالة الملائكة تصدى في مواطن كثيرة لذكر الملائكة والجنة ونحوها كقوله ص ٧ ام تراني أداري منكراً ونكيراً . وقوله : ص ١٦ قصرت أعمالهم عن دخول الجنة ... وقوله : ص ١٧ فيقول رضوان ... وقوله ص ٢٠ يشربون ماء الحيوان في النعيم المقيم ...

وقوله : ص ٢٣ وان كان اهل الجنة ...

وأما رسالة الغفران فكل ما فيها أدلة وبراهين على اقراره بالبعث والحشر والجنة والنار وما الى ذلك

ولم تخل رسائله الى اهله وأصحابه وغيرهم من ذكر الآخرة وما يتصل بها فقد قال في رسالة المنيح ص ٩ افبلدتنا جنان .. أم نشروا بعد ما قبروا ام جزوا الغرفة بما صبروا ...

وقال في رسالته الى خاله ص ٦٧ وترجح في الحشر وزنا . وفي رسالة ثانية اليه ص ٦٩ وحزني لفقدها كنعيم أهل الجنة وفي رسالته الى ابي عثمان النكتي ص ١٥٢ نقله الله ... من دار الشقاء الى دار النعيم والبقاء

وفي رسالة الى خاله ص ٢٠٩ فقد ورد مع الحور العين كأساً كان مزاجها كافورا .. جاور ربه في دار الحيوان تلك الدار الآخرة ...

وفي جوابه الى داعي الدعاة بمصر ذكر الآخرة وتعوذ بالله من قول من أنكرها ولعن الوليد بن يزيد لقوله الذي انكر فيه البعث والجنة ، كما ذكر ذلك ياقوت في معجم الأدباء ج ١ ص ٢٠٠ وص ٢٠٨

وأما لزوم مالا يلزم فهو أكثر كتبه مظنة أن يكون فيه انكار أو شك لأنه اطلق للسانه فيه العنان وأعطى عقله فيه الحرية المطلقة وأوضح فيه عن كثير من آرائه الفلسفية وقد زعم صاحب الذكرى ان ابا العلاء نفى البعث فيه اكثر من ستين مرة ولكنه لم يبين مرة منها ولم يعين موضعاً لواحدة منها فيه كما قلنا

وأنا اقول ان ابا العلاء اثبت فيه الحشر وما يتعلق به مما يكون بعد الموت الى دور الخلود في اكثر من مائة موضع واستدل على امكان بعض منه وهذه امثلة من كلامه في ذلك

القبر وما فيه

خلصيني من ضنك ما انا فيه   واطرحيني لمنكر ونكير

فهل هو خاش من نكير ومنكر   وضغطة قبر لايقوم لها نظم

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

الجزاء

لا ييأسن من الثواب مراقب لله في الايراد والاصدار
فترى بدائع أنبات متحسساً ان الجزاء بغير هذي الدار

الصور

مضت قرون وتمضي بعدنا أمم والسر خاف الى ان ينفخ الصور

الصحائف

وجاءت صحائف قد ضمنت كبار آثامهم واللمم

الحساب

وراعني للحساب ذكر وغرني انه بعيد
وعن يميني وعن شمالي يصحبني حافظ قعيد

السراط

وكأن هذا الخلق أهل جهنم ولهم من الموت الزؤام سراط

الميزان

أكذب القوم بالميزان أن سمعوا ان القيامة فيهـا عادل يزن
وقد وجدنا مقال الناس ذا زنة فكيف ينكر ان الفعل يتزن

رضوان

وان كفتني عذاب الله مغفرة فما احاول منها فوز رضوان

مالك

يا رضو لا أرجو لقا ءك بل اخاف لقاء مالك

طوبى

فان خرجت الى بؤسى فواحرجي وان نقلت الى نعمى فطوبى لي

جنة الخلد

وما اظن جنان الخلد يدركها الا معاشر كانوا في التقى جهدا

جنة عدن

فان جنة عدن لا يجاد بها الا لصاحب دين في أذى عدنا

جنة النعيم

وما سرني اني اصبت معاشراً بظلم واني في النعيم مخلد

النار

أأصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر او كسرى

سقر

ان عوضوا عن ذنوب اسلفت سقراً فلم ترمهم على علاتها سقر

السعير

أترجين من إلهك عفواً وتخافين في الحساب السعيرا

جهنم

جنان ورضوان الذي هو مالك لها عنك ينفي مالكا وجهنما

الهاوية

هاوية نفسك ما ساءها فلتخش ان تلقى الى الهاوية

حسبي من الجهل علمي ان آخرتي هي المآل واني لا أراعيها

وان دنياي دار لا قرار بها وما أزال معنى في مساعيها

كيف لي ان اكون في داري الأخرى معافى من شقوة مستريحا

وقدرة الله حق ليس يعجزها حشر الخلق ولا بعث لأموات

يكر موتانا الى الحشر ان قال لهم بارئهم كروا

بحكمة خالقي طيي ونشري وليس بمعجز الخلاق حشري

فيا ليتني في الثرى لا اقوم ان الله ناداكم او حشر

لا خير للمرء الا خير آخرة يبقى عليه فذاك العز والشرف

ولولا خشية الإطالة لأتينا على ذكر عدد عظيم من الشواهد من كلامه في

هذا الموضوع مما ذكره في لزوم مالا يلزم وقد ذكرنا في كتابنا التعريف بأبي العلاء اكثر من مائة بيت صرح فيها كلها بذكر الحشر وما فيه وليست هي جميع مافي لزوم مالا يلزم بل هناك عدد كبير لم نذكره

وبعد هذا يمكننا ان نستنتج مما تقدم أربعة أمور

الأول : ان ابا العلاء مؤمن بالحشر مقر بكل ما يتعلق به على وَفق ما جاءت به الشريعة الاسلامية وان ليس في كلامه تصريح بالشك او الانكار في جميع اطوار حياته وجميع آثاره التي ذكرناها

الثاني : ان بعض العلماء حكم عليه بالالحاد او انكار الحشر او نحوهما اما عن حسد او تقول او طلب شهرة او متابعة لما قيل من غير تثبت ولا استناد الى دليل ومثل هؤلاء مثل الرجل الذي مرَّ في سوق يحمل باحدى يديه خبزاً وبالأخرى لبناً فرأى أناساً يضربون رجلاً فوضع ما كان في يديه وأقبل على المضروب فأشبعه ضرباً وسباً ثم عاد فحمل طعامه وادامه فقال له رجل : ما حملك على مافعلت ؟ قال : اني لا اعلم الرجل المضروب ولكني رأيت هؤلاء يضربونه فقلت لولا انه يستحق الضرب لما ضربوه فشاركتهم في عملهم

الثالث : ان الزمخشري والبناني لم يوفقا فيما تقولا او تأولا على ابي العلاء

الرابع : ان ما نسبه صاحب الذكرى الى المعري من الشك او الانكار قائم على الوهم المجرد وحسبنا ان نجتزئ بهذا القدر فان فيه مقنعاً للمرتاب

سليم الجندي

المرأة في عهد النبوة ، وفي عصرنا الحاضر

كان امر المرأة في تاريخ العالم القديم والحديث عجباً ، كانت تشرى وتباع ، وتكره على الزواج والبغاء ، وكانت تملك وتورث ، ويتصرف فيها الرجلُ على هواه كأنها سلعة ، او كأنها كرة بين ايدي الرجال ، ولم تكن الأمم الأخرى أقل اضطهاداً لها ، او امتهاناً لها من عرب الجاهلية ، وليس هذا موضع تفصيل تاريخها عندهم وإنما الكلام فيما كانت عليه قبل الاسلام وفيما ارتقت اليه بعده .

كان العرب في العهد الجاهليّ فريقين : منهم من عبد المرأة بعد ان جعلوا الملائكة إناثاً ، وجعلوها بناتٍ لله ، ومنهم من وأدها ، أو أبقاها فاضطهدها ، وما ورد في القرآن الكريم أصدق مثال للحال التي كانت عليها العربُ قبل الاسلام ، فهو يقصُّ علينا كيف عبدوا الأنثى ، ومن آياته في ذلك قوله تعالى « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » وقوله « وجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً : أشهدوا خلقهم ، ستكتبُ شهادتهم ويُسألون ، وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، مالهم بذلك من علم ، إن هم إلا يخرصون » فهم لم يعبدوا الملائكة حتى جعلوها بناتٍ ، وجعلوها إناثاً ، وقال في الفريق الآخر الظالم الآثم : « وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هُون ، أم يدسُّه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون » وقال : « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت »

فهذه الطفلة التي كانت تعيشُ ذليلةً مهينة ، او تُدسُّ في التراب حيةً دفينة ، ستقول : يا رب ، قتلت بلا ذنب » .

هذان طرفان ذميمان من معاملة الأنثى في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام أبطلهما معاً ، ومنحها حقوقها ، وعرّفها واجباتها ، وأنزلها المنزله اللائقة بها ، وآية « ولهن مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهن درجة » لا يوجد في أرقى الشرائع القديمة

والحديثة قانون أعدل ولا أجمع منها ، إذ قد ساوت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات ولم تعين هذه الحقوق والواجبات لأنها تتبع العرف ، وتختلف باختلاف الطبقات ، والشرائع والعادات ، وخصت الرجلَ بدرجة الرئاسة إذ لا بد لكل جماعة أو أسرة من نظام ، ولا بد لكل نظام من رئيس منفذ ، والرجل اولى بتطبيق النظام المنزلي وتنفيذه ، لأن له من القدرة على الرعاية والحماية والكسب والإنفاق ماليس لها ، وهذا المراد من الآية الكريمة « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم » لكن هذه الرئاسة رئاسة شورية لا استبدادية ، ودليلها من القرآن قوله تعالى في شأن الزوجين وطفلهما الرضيع وفطامه « فان أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » فهذا نص صريح في إقامة سنة الشورى بين أعضاء الأسرة الواحدة ، فالإسلام نهى عن عبادة المرأة ، ولم يستعبدها كما فعلت الأمم السابقة ، ولم يقلب نظام الطبيعة ليجعل منها رجلاً ثانياً كما فعل العصر الحديث ، فقد تخلى عنها الأب والأخُ والزوج والابن ، ودفعوها جميعًا في تيار العمل واللهو خارج المنزل ، فاختلَّ نظام البيوت ، ولا نزال نسمع الشكوى المرّة في الاذاعات العامة المرة بعد المرة ، من تقوض دعائم الأسرة والوطن .

أثر المرأة في الحروب الجاهلية والاسلامية

لم تفقد المرأة بعد الاسلام شيئًا من مكانتها الأدبية ، لاشجاعتها الحربية ، ولكن الاسلام وجهها وجهة صالحة ، ونفخ فيها روحًا جديداً لم يكن لها من قبل .

كان القتال الجاهليّ حروباً اهليةً داخليةً ، وكان فيها إضعاف للأمة ، وتفريق لوحدتها ، وهدٌّ لقواها ، ومنهم من كان يُصرح بأنه يشهد الوغى لا لغرض سوى شهود اللذات ، أو اليأسِ من الحياة ، كقول طرَفة :

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى   وان أشهد اللذات هل انت مخلدي
فان كنت لا تسطيعُ دفع منيتي   فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وعنترة الذي يتغزل بعبلة ويحاول ان يسترضيها بوقائعه ومشاهده فيقول :

ولقد ذكرتكِ والرماحُ نواهلٌ مني وبيضُ الهند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وكانوا اذا ساروا للحرب صحبوا نساءهم ابتغاء الحفيظة واتقاء الفرار ، وأخذوا معهم القيان والدفوفَ والمعازف والخمور ، ومنه ما وقع في غزوة أُحدٍ فانه لما التحمت الصفوف واشتدت الحرب قام الفسوة وأخذن الدفوفَ يضربن خلفَ الرجال وُينشدْنَ الأشعار تهييجاً لعواطفهم ، وكان عليه الصلاة والسلام كلما سمع نشيد النساء قال : اللهم بك أجول ، وبك أصول ، وفيك اقاتل ، حسبي الله ونعم الوكيل »

ويظهر لنا الفرق واضحاً بين هذه الأهداف القاصرة وبين الهدف السامي الذي جاء به الاسلام وهو اعلاء كلمة الله : أي نصرة الحق على الباطل ؛ والفضيلة على الرذيلة ، والتوحيد على الوثنية ، واين ذكرُ عنترة لعبلة حين اشتداد القتال من ذكر الله في قوله « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »

فالثباتُ من اسباب النصر والظفر ، وذكرُ الله قوة معنوية تثبت القلوب من ناحية ، وتبعثُ فيها الرحمةَ من ناحية أُخرى ، فالذاكر لله لا يقاتلُ ابتداءً ولا اعتداءً ، ولا يقاتل من لا يقاتل كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضى ومن ألقى السلم وكفّ عن الحرب .

كان تألق نور الاسلام له اثر في تطور الحياة العربية الفكرية والاجتماعية والأدبية والسياسية ، وها نحن اولاء نقتصر الآن على ذكر المرأة العربية في العصر النبوي بعد ان وصفنا عملها في الدور الجاهلي .

كان تعلم العلم الديني في عهد النبوة عاماً للكبار والصغار والذكور والاناث ، فكان النساء يتدارسن القرآن ، ويروينَ الأحاديث ، ويُحافظنَ على العبادات ، ويصلين صفوفاً في المساجد ، ويستمعن الخطب والمواعظ ، ويحضرن صلاة العيدين في المصلى العام ، ويُسافرن لأداء فريضة الحج والعمرة ، بل كنّ ايضاً يشهدن الحروب ، ويهيئن للمجاهدين الطعام ، ويسقينهم الماء ، ويغسلن الثياب ، ويضمدن الجروح ، ويشتركن في الجهاد أحياناً .

نعم إن الشريعة لم توجب على المرأة حضور الجماعة والجمعة إيجاباً، ولم تفرض عليها القتال مع الرجال، وحماية الديار، والدفاع عن الحق بالقوة، وإنما خصت الرجال بذلك كله لأن للمرأة من نظامها الفطري، واختصاصها المنزلي، ما يعوقها عن مشاركة الرجال في كل حين بمثل هذه الأعمال، ومن اكبر موانعها الحمل والولادة وحضانة الأطفال وإعدادهم رجالاً للمستقبل، وإدارة شؤون المنزل .

وأما عملها الحربي الاسلامي، فيظهر الفرق بينه وبين عمل النساء الحربي الجاهلي، بما قامت به في وقعة أحدٍ نفسها بطلة الحروب والوقائع العربية الإسلامية، الصحابية الجليلة أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية الشهيرة، واليك الحوار الذي دار بينها وبين أم سعد بنت سعد بن الربيع، قالت أم سعد: دخلت عليّ أمُّ عمارة فقلت يا خالة: اخبريني خبرك، قالت: خرجت اول النهار، وانا انظر ما يصنعُ الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في اصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنتُ أباشر القتال، وأذبُّ عنه بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراحُ اليّ، فرأيت على عاتقها جرحاً اجوف له غور، فقلت من اصابك بهذا، قالت ابن قمئة اقمأه الله (اذله واصغره) : لما ولّى الناس عن رسول الله اقبل يقول: دلوني على محمد فلا نجوتُ ان نجا، فاعترضتُ له انا ومصعب بن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله فضربني هذه الضربة، ولكني ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان . وقد اثنى الرسول على شجاعتها فقال: ما التفتُّ يوم أحدٍ يميناً ولا شمالاً إلا ورأيتها تقاتل دوني .

شهدت بيعة الرضوان، ثم شهدت وقعة اليمامة فقاتلت حتى قطعت يدها، وجرحت اثنتي عشرة جراحة . وكانت فوق ذلك كله محدثة جليلة روى عنها ابنها عباد بن تميم، ومولاتها ليلى، وعكرمة، والحارث بن كعب، وأم سعد، وحديثها في كتب السنن الاربعة .

وبمثل ما قامت به ايضاً خولة اخت ضرار بن الأزور الكندي التي كانت اشجع

نساء العرب في عصرها ، وكانت تشبه بخالد بن الوليد في حملاته ، بل ظنها أناس في بعض وقائعها خالداً ، بل خالد نفسه كان معجباً بفرط شجاعتها ، وما ظهر من خلالها وشمائلها ، ولها اخبار كثيرة في فتوح الشام ومما حدث به الواقدي انه لما أُسر اخوها ضرار بن الازور في وقعة اجنادين سار خالد بن الوليد في طليعة من جنده لاستنقاذه . فبينا هو في الطريق ، مرّ به فارس معتقل رمحه ، لا يبين منه الا الحدق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوي على ما وراءه . فلما نظره خالد قال : ليت شعري من هذا الفارس ؟ وايم الله إنه لفارس ! ثم اتبعه خالد والناس من ورائه ، حتى أدرك جند الروم ، فحمل عليهم ، وأمعن بين صفوفهم ، وصاح بين جوانبهم ، حتى زعزع كتائبهم ، وحطم مواكبهم ، فلم تكن غير جولة جائل ، حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء . وقد قتل رجالاً ، وجندل أبطالا ، ثم عرض نفسه للموت ثانية ، فاخترق صفوف القوم غير مكترث ، وخامر المسلمين من القلق والاشفاق عليه شيء كثير . وظنه أُناس خالداً . حتى إذا قدم خالد قال له رافع بن عميرة : من الفارس الذي تقدم أمامك ؟ فلقد بذل نفسه ومهجته ، فقال خالد : والله لأنا أشد إنكاراً واعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله ، وبينا القوم في حديثهم ، خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب ، والخيلُ تعدو في اثره ، وكلما اقترب احد منه الوى عليه ، فأنهل رمحه من صدره ، حتى قدم على المسلمين ، فأحاطوا به وناشدوه كشفَ اسمه ، ورفع لثامه ، وناشده ذلك خالد ، وهو امير القوم وقائدهم ، فلم يحر جواباً ، فلما أكثر خالد اجابه وهو ملثم فقال : ايها الامير إني لم اعرض عنك الا حياء منك ، لأنك امير جليل ، وأنا من ذوات الخدور ، وبنات الستور ، وانما حملني على ذلك اني مُحرَقة الكبد ، زائدة الكمد ، فقال خالد : من أنتِ ؟ قالت انا خولة بنت الازور . كنت مع نساء قومي ، فأتاني آت بأن اخي اسير . فركبت وفعلت ما رأيت . هنالك صاح خالد في جنده ، فحملوا وحملت معهم خولة وعظم على الروم ما نزل بهم منها ، فانقلبوا على أعقابهم .

أدب المرأة وصبرها قبل الاسلام وبعده

كان لوحي الله المعجز سلطان على روح المرأة العربية ووجدانها ، وكان ايمانها عدتها في الحروب والفجائع وعتادها ، فهو يفرغ على قلبها نعمة الصبر والثبات ، ويعدها اذا كانت فاقدة واجدة بالجزاء في دار الرضوان ، وقد ظهر الفرق محسوساً بين حالتيها في الجاهلية والاسلام . هذه الخنساء بنت عمرو بن الشريد الشاعرة المشهورة التي كانت تقول في اول امرها البيتين او الثلاثة ، فلما قتل شقيقها معاوية بن عمرو وقتل اخوها لأبيها صخر ، اكثرت من الشعر حتى سارت بقصائدها الركبان ، واشتهر نواحها على صخر حتى غدا مضرب الأمثال ، وصارت هي اشهر شواعر العرب فمن ذلك قولها فيه :

ألا يا صخرُ لا انساك حتى أفارق مهجتي وُيشقّ رمسي
يذكرني طلوعُ الشمس صخراً وأبكيه لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي من المتفجعين قتلتُ نفسي

ومن شعرها فيه :

ألا يا صخرُ ان ابكيتَ عيني فقد اضحكتني دهراً طويلاً
ذكرتك في نساء معولات وكنتُ أحقّ من ابدى العويلا
دفعت بك الجليل وانت حيٌّ فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
إذا قبح البكاء على قتيلٍ رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وقد قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم مع قومها من بني سليم ، فأسلمت معهم ، فذكروا ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يستنشدها الشعر فيعجبه شعرها وهو يقول: هيه يا خناس ويومئ بيده ، حضرت الخنساء حرب القادسية ومعها بنوها اربعة رجال ، فوعظتهم ، وحرضتهم على القتال ، فلما أصبحوا باشروا القتال واحداً بعد واحد حتى قتلوا فبلغها الخبر فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وارجو من ربي ان يجمعني بهم في مستقرّ رحمته

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

علم النساء في العصر النبوي

وكما كانت المرأة العربية في الحرب صاحبة سيف وسنان ، وفي السلم ربة برهان وبيان ، كانت في حلقات الدروس تشاطر الرجل كل علم ، وتضرب معه بأوفر سهم ، وفي اوقات العبادة حمامة المسجد ، ومحدثات النساء في عهد النبوة وما بعده كثيرات جداً ، وانك لتجد اسماءهن مدونة في كتب طبقات المحدثين وغيرهم.

وقد استغرقت المحدثات المجلد السادس من مسند الامام أحمد بن محمد بن حنبل الا قليلا ، ومسند السيدة عائشة — أي الاحاديث التي سمعتها وروتها — قد بلغ وحده اكثر من خمسين صفحة بعد المائتين [ص ٢٩ — ص ٢٨٢] . وقد تسلسل العلم في بعض البيوتات في السيدات حتى صارت الواحدة تروي أحاديث النبي عن امها وجدتها ، ومن شواهد ذلك ما رواه الامام ابو داود في سننه قال : حدثنا محمد بن بشار ، حدثني عبد الحميد بن عبد الواحد ، حدثتني ام جنوب بنت نُميلة عن ام سويدة بنت جابر عن امها عقيلة بنت أسمر بن مضرس : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من سبق الى ما لم يسبق اليه مسلمٌ فهو له قال : فخرج الناسُ يتعادون ويتخاطون ، اي كل منهم يسبق صاحبه بالخط [1] وهذا الحديث يوضح لنا كيف كانت المسلمات راويات محدثات وكيف كانت الفتاة العربية المسلمة تحفظ السنة وترويها عن امها وجدتها وهي في العقائد والعبادات والمعاملات والاخلاق والآداب وبهذه العلوم النافعة ، كانت تعنى النساء والفتيات العربيات في عصور الاسلام الزاهية ، فهل نجدد بذلك عهداً ونعيد لنسائنا وبناتنا مافقدنه من تراث ديني أدبي

تلكم هي اوصاف العربيات المسلمات في عهد سلفنا الصالح ، وفي ظلال العلوم والآداب الإسلامية فما حال المجتمع الاسلامي اليوم ، وما شأن المرأة العربية في عصر المدنية الحديثة ؟

(١) يتخاطون : اي يعملون على الارض علامات بالخطوط ، تسمى الخطط واحدتها خطة ، وهي الأرض يخطها الإنسان لنفسه ، ويخط عليها خطاً ليعلم انه اختارها

المتعلمات في عصرنا الحاضر

لا يستطيع منصف ان ينكر النهضة الحاضرة فان الفتيات في عصرنا هذا يحملن الشهادات الابتدائية والثانوية، ومنهن من نالت الشهادة العالية في العلوم او الآداب او الحقوق او الطب او شهادة التخصص بالفلسفة والتربية ، ولكننا لا نرى الشهادات المدنية ما يماثلها او يدانيها في دروس الدين . فان قيل وأين تخصص الفتاة الحاملة لشهادة العالمية او الحقوق مثلاً في العلوم الدينية ؟ فالجواب من وجهين :

(١) مطالبة الحكومة بافتتاح فرع التخصص الديني الذي كانت اعتزمت انشاءه وجعله فرعاً للجامعة السورية ، ونفقاته قليلة ، وفوائده جزيلة ، ومطالبتها أيضاً بانشاء الكلية الشرعية الإسلامية التي اجمع طلاب المعاهد الدينية والمدنية على المطالبة بها ، ثم أيدهم بمطلبهم هذا مؤتمر الجمعيات الاسلامية وعززه بكتاب بعث به الى الحكومة ولعلها محققة للأمة هذا المشروع العظيم الذي يكون له إذا تم — كما قالوا — أبرز الأثر في البلاد العربية وفي الشرق عامة ان شاء الله

(٢) إن الأزهر الشريف قد افتتح كليات التخصص الديني وجعلها لأبناء المسلمين عامةً لا للمصريين خاصةً ، فمن السهل على بناتنا من حاملات (البكالوريا) ولا سيما المجازات بالحقوق ان يصحبن بعض ذوي المحارم الى مصر وينهلن من معين الشريعة الصافي ويعدن رافعات ألوية الدين والعلم والإصلاح

كان النساء في صدر الاسلام على علم بدينهن ، ومالهن وعليهن ، أما نساء عصرنا فهن يسألن ويستشكلن مسائل كان يرجى منهن انفسهن الجواب عنها مثل شهادة المرأة وميراثها وديتها ، ومثل تعدد الزوجات (او عدم المساواة كما يقال) ويسألن عن الحكمة في كون ازواج الرسول اكثر من اربع ، وأمثال هذه المسائل ، ونحن نجيب عنها بايجاز :

شهادة المرأة

المرأة إنسان كامل كالرجل لها من الحقوق مثل ماله وعليها من الواجبات مثل ما عليه كما تقدم . ثم ان للمرأة من طبيعة الأنوثة ونظام الفطرة أموراً خاصةً بها ، كتدبير المنزل وادارة شؤونه ، كما انّ للرجل خصائص لا تشاركه هي فيها كاحتمال المشاقّ ، والدفاع عن الحقّ بالقوّة ، وبهذه الخصائص والمزايا التي انفرد كل نوع من الذكور والاناث ببعض منها ، كانت الأنثى أنثى ، والرجل رجلاً .

وان من المسائل التي لا تماثله فيها مسألةَ الشهادة ، فانها تارةً تكون شهادتها مثلَ شهادته ، وطوراً تكون أقل من شهادته ، وأحياناً تقبلُ شهادة النساء منفردات عن الرجال ، بل تتعين عليهن الشهادة وحدهن ، وذلك في الأمور النسائية التي لا تعلم الا من جهتهن . وقد راعى الاسلام في ذلك كله الحكمة ، ومشى مع المصلحة العامة التي تراعى في كل زمان ومكان .

فأما مسألة الشهادة على المال فالأصل فيها آية المداينة وهي في أواخر السورة الثانية (سورة البقرة) « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدينٍ الى اجلٍ مسمى فاكتبوه » الى قوله : واستشهدوا شهيدَين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضَونَ من الشهداء أن تَضلّ إحداهما فتذكر احداهما الأخرى » فقد علل اقامة الثنتين مقام الرجل الواحد بالخطإ الذي يعرض لهن فيما ليس من شأنهنّ أن يذكرنه ، لأنه شهادةٌ على أمر ماليّ ، وليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ، ومن طبيعة الانسان أن يكثر ذكره لما يُعنى به ويهمه أمره ، ولا يرد علينا اشتغال بعض النساء في هذا العصر في الأمور المالية او في غيرها من أعمال الرجال كالهندسة والحقوق والزراعة والميكانيك و كالانخراط في سلك الحكومة ، فان هذا خروج على نظام الفطرة والأسرة ، وتضييع لمصالح المنازل

والأزواج والأولاد ، كما هو مشاهد محسوس ، وكما نسمع الشكوى المرأة ممن يتخبطون في بحران هذه الفوضى .

وأما ما كان من شأن النساء ان يذكرنه ولا ينسينه ، وهو من خصائصهن فقد قبل فيه رسول الله شهادة امرأة واحدة ، وثبت في الصحيح عنه أنه سأله عقبة بن الحارث فقال « اني تزوجت امرأةً فجاءت أمة سوداء فقالت انها أرضعتنا ، فأمره بفراق امرأته ، فقال : إنها كاذبة ، فقال : دعها عنك » فهذا الحديث صريح في قبول شهادة المرأة الواحدة وان كانت أمة وكانت شهادتها على فعل نفسها في أمر الرضاع ، والنبي لم يتهمها بالخطإ ولا بالنسيان على تراخي العهد وطول السنين .

وأيضاً فان الشريعة السمحة المنتظمة لمصالح البشر تقبل شهادة النساء منفردات عن الرجال ، في الأمور الخاصة بهن ، والتي لا تعلم الا من جهتهن كالأعراس والمآتم والحمامات ، وكالولادة والرضاع ونحوها من الأمور التي تنفرد النساء بالحضور فيها والاطلاع عليها ، فان شهادة النساء وحدهن مقبولة فيما يقع في تلك المجتمعات ، حفظاً للحقوق وضبطاً للشؤون . ومتى كانت المرأة ممن يوثق بدينها وأمانتها كان المقصود بخبرها حاصلاً كما يحصل بخبر الرجل ، وقد نقل الشعراني في ج ٢ من كتابه الكبريت الأحمر عن الشيخ محيي الدين ان المرأة تلحق الرجال في الأبوّة ، وتلحقهم أيضاً في بعض المواضع فتقوم مقام الرجلين ، ويقطع الحكم بشهادتها كما يقطع بشهادة الرجلين ، وذلك في قبول الحاكم قولها في مدّة عدتها ، وقبول الزوج قولها : ان هذا ولده ، فقد تنزلت ها هنا مقام شاهدين عدلين ، كما تنزل الرجل في شهادة الدّين منزلة امرأتين ، فتداخلا في الحكم ، فهذه تولية لها من الله

ميراث المرأة

وأما الميراث فيقال فيه ما قيل في الشهادة أيضاً ، وهو انه يكون لها نصف ميراثٍ تارةً ، ويكون ميراثاً كاملاً كميراث الرجل تارةً أخرى ، والباحث في

مسألة الميراث من الوجهة الاسلامية ينبغي ان يذكر قبل كل شيء ان الإسلام لم يجعل من المرأة رجلاً ثانياً ، فيحملها أعباء الحياة الخارجيــة ، بل حافظ على عملها الفطري ، ونظامها المنزلي ، وفرغها لتدبير مملكتها الداخلية ، وجعل الرجل كافلاً لها ، فهي ليست مجبرة على الكسب والنفقة بنتاً ولا زوجاً ولا أُمــاً ، بل الرجل هو الذي ينفق عليها زوجاً وأباً . وأما مالها الذي يتكوّنُ لهــا من الإرث والمهر والاستثمار فهو يبقى لها (رأس مال احتياطي) تنفق منه اذا اضطرت اليه .

ثم ان ميراثها الذي هو نصف ميراث الرجل هو في الحقيقة خيرٌ لهــا وأبقى من ميراثه الكامل ، فان نصيب الرجل يكون مقسماً بالنفقة ما بين زوجه وولده ، ويكون نصيبها لها وحدها كاملاً غير منقوص ، ولكن الاسلام لم يظلمه في ذلك لأنه هو العامل الكاسب ، أما هي فيعوقها عن الكسب تلك العوائق الزوجية كالحمل والولادة والأمومة والحضانة ، وأما مالها الخاص فمالٌ احتياطي تنفق منه متى احتاجت اليه كما قدمنا . على أنها أحياناً يكون لها مثل الرجل كما اذا خلف الميت ذكراً فأكثر ، وكان له والدان ، فلكل واحد منهما السدس ، فهما سواء في هذه الفريضة لا يتفاضلان فيها ، وذلك لعظم مقام الام بحيث تساوي الأب بالنسبة الى ولدهما ، وان كانا يتفاضلان في الزوجية وغيرها . وكما اذا كان للميت أخ وأخت من أم فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث على المساواة التامة بين ذكورهم وإناثهم . والآيات الكريمة في سورة النساء ناطقة بذلك كله .

وجملة القول ان المرأة تارةً يكون نصيبها نصف نصيب الرجل ، وتارةً مثله ، وهي على كل حال بنته او زوجته او أمه ، وعليه وحده المشقة والنفقة ، ولها الراحة والهناء ، وعليه الغرم ، ولها الغنم ، فأنى تكون مهضومة او مظلومة ? ووارحمتــاه للرجل فلسان حاله يقول قول المتنبي :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبــه   أني بما أنا باكٍ منه محسودُ !

دين المرأة

وأما عبادتها ، فهي مطالبة بأدائها كاملةً كالرجال ، ومنها الصيام والحجّ والزكاة ، اللهمّ إلا الصلوات الخمس في كل يوم وليلةٍ ، فالشارع اسقطها عنها في حال تلبسها بعذرها الطبيعي الشهري ويمتدّ أياماً وفي مدة النفاس في الولادات ايضاً وتمتد عشرات الأيام ، ولم يوجب عليها قضاءها بعد انقضاء تلك الأيام دفعاً للحرج عنها ، « وما جعل عليكم في الدين من حرج » « ذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمةٌ » وهذا هو معنى نقصان دينها ، فما هو بالشيءُ الذي تستحق عليه الملام في الاسلام .

أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم التسع

اجمع المؤرخون وعلماء السيرة على انّ محمداً النبي العربي (صلوات الله عليه) اكمل ناشئٍ في قومه ، وأعفُّ رجل فيهم ، وقد خطبته خديجة بنت خويلد زوجاً لها في مطلع شبابه وهي في الأربعين فتزوجها فصارت أمّ المؤمنين ، وماتت عنده عجوزاً وقد بلغ الخمسين ، فكانت أولى نسائه وأمّ اولاده عدا ابراهيم (فانه من مارية القبطية) وكانت ذات حسبٍ ونسبٍ فاختارت الكفوء الكريم .

اقامت معه ربع قرنٍ فلم يتزوج عليها احداً ، بل لم يجمع في مكة بين ثنتين ، بل لم يتزوج بكراً غير عائشة (رض) فهل هذا شأن من يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ ثم إن لتعدُّد ازواجه في المدينة أسباباً خاصة وعامة ، وحكماً ومقاصد سامية ، ونحن نلخصها فيما يلي :

إن الجمع بين أمهات المؤمنين لم يكن إلا بعد هجرة النبي إلى المدينة في السنوات العشر الأخيرة من عمره صلى الله عليه وسلم وعددهن تسعٌ ، خمس من قريش ، وهن عائشة بنت ابي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت ابي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سَلمة بنت أمية ، واما الأربع الباقيات فهنّ صفية بنت حُيي الخيبرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ،

وجويرية بنت الحارث المصطلقية. والحكمة في تزوجه بعد هجرته الى المدينة ببضع نسوة في بضع سنين هو العناية باصلاح البيوت ، وتهذيب النفوس ، ومصاهرة القبائل ، وكفالة الأرامل ، وتربية الأيتام ، وأن تكون ازواجه قدوةً حسنة لجميع النساء في تلقي العلم والحكمة ، والبرّ والرحمة ، والتقوى والعبادة ، والتربية والتعليم وإليك البيان :

(١) جعل الله تعالى من بيوت نساء النبي صلى الله عليه وسلم مدارس داخلية يتعلمن فيها الدين : عقائدَه وعباداته ومعاملاته وأخلاقه لا سيما ما يختص منه بالنساء فقال « وَقَرْنَ في بيوتكنّ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعنَ الله ورسوله » فالقرار في البيوت من اجل ان يتعلمن ما يحتجن اليه ، وما يَعظنَ به النساءَ والرجال ، ولهذا قال : « واذكرْنَ ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » وآياتُ الله : براهينه وكتابه ، والحكمة سنة نبيه المبينة ما نزل اليه من ربه ، وانما نهى عن التبرج الجاهلي لأن المفتونات بحبّ الزينة لا يأتي منهن معلمات ولا مربيات ، ولأن الانغماس في المشتهيات ، والإسراف في اللذائذ يفسد بأسَ الدول القوية ، ويفقرُ الأمم الغنية ، فكيف بالأمة الناشئة الضعيفة ، ونساء النبي انما وُجِدْنَ عند النبي لتربية الأمة وتعليمها ، وارشادها واسعادها .

(٢) لما طلبن منه التوسع في الطيبات ، وملابس الزينة والترف في المعيشة ، نزلت في حقهن آيتا التخيير ، « يا أيها النبي قل لأزواجكَ إن كنتنّ تُردْنَ الحيا الدنيا وزينتها فتعالينَ أمتعكنّ وأسرحكن سراحاً جميلاً وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة فانّ الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً »

لما نزلت هاتان الآيتان بدأ بعائشة وكانت أحبهنّ اليه ، كما كان أبوها أعز الرجال عليه ، فقال يا عائشة إني أحبُّ ان اعرض عليك أمراً أحبُّ ان لا تعجلي فيه حتى تستشيري ابويكِ ، قالت وما هو يا رسول الله ، فتلا عليها الآية ، قالت : أفيكَ يا رسول الله أستشير ابويّ ، بلى أختارُ الله ورسولهِ والدار الآخرة ، ثم

خيرهن كلهن فاخترن ماهو خير لهن، اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

(٣) أراد نساء النبي صلى الله عليه وسلم ان يقمن حيث أقامهن الله ورسوله صالحات قانتات مربيات معلمات، مرشدات ومفتيات، فاخترن الدار الآخرة ونعيمها الدائم، ورضوان الله الاكبر، على حظوظهن من هذه الحياة الدنيا ومتعها ومفاتنها، فأثابهن الله كرامة لهن وجزاءً على ما اخترن ورضين بأن قصر نبيه عليهن، دون ان يتزوج او يطلق او يستبدل بهن غيرهن فقال : « لا يحل لك النساء من بعد ولا ان تبدل بهن من أزواج » الآية، والحكمة في تحريم تطليقهن هو استدامة سماعهن ما يتلى في بيوت النبي من آيات الله والحكمة، وذكر ذلك ونشره بين الناس لاسيما نساء الصحابة، وأية فائدة ترجى لهن او لغيرهن من طلاقهن، وهن أمهات المؤمنين تعظيماً وتحريما على الرجال كالامهات، فأنت ترى ان النبي قد قصر على ازواجه الطاهرات، وحرم عليه ان يمد عينيه الى غيرهن بالزيادة او التبدل، بخلاف رجال أمته الذين أبيح لهم التعدد بشروطه، وكذا التطليق، وان يستبدلوا بأزواجهم غيرهن، فكان قصره على دائرة ضيقة من الأزواج، وكانت الأمة في دائرة أوسع منها أهذا هو الذي يسمونه تمتعاً بالنساء أو الأزواج ؟

نساء كلهن ثيبات (عدا السيدة عائشة) ومنهن من لها اولاد، تزوجهن في سن الكهولة أو الشيخوخة، وحين الحاجة الى التبليغ والتعليم، وربما كان التزوج بهن كلهن قبل نزول آية التحديد بأربع نسوة، فهي قد نزلت في السنة الثامنة من الهجرة وكان تزوجه بآخرهن وهي ميمونة بنت الحارث الهلالية في أواخر سنة سبع منها، وحرم عليه تطليقهن لأنهن قد اخترن ما عند الله على زهرة الحياة الدنيا وزينتها، على أنهن قد صرن أمهات المؤمنين فما الفائدة من طلاقهن وهن حرام على الرجال ؟ أوليست الحكمة في بقائهن عند هذا الزوج الكريم، والرسول العظيم، متعلمات معلمات ومثلا عليا في تهذيب النفوس وسائر الصالحات ؟

تعدُّدُ الزوجاتِ والطلاق

ان تعدد الزوجات والطلاق لم يختص بهما الاسلام ، وانما كانا شائعين عند اليونان والرومان والعرب وغيرهم قبل الاسلام ، وقد اباحت القوانين الأوربية والاميركية تعدد الزوجات والطلاق واصبح ذلك عندهم مستحسناً ، من بعد ان كان مستهجناً ، ولكن التعدد في عرفهم يقصد به التنقل في اللذائذ والتمتع بأنواع الحياة والشهوات ، فكان ذلك من اكبر الدواعي لتناقص النسل ، لا لازدياده ، والسآمة من الحياة الزوجية لا الرغبة فيها .

اما التعدد الصحيح فله ضرورات ، منها ان تكون الزوج عقيماً لا تَلِدُ ، أو عندها مانع من مرض ، او دخلت في سنّ اليأس ، وهذه أسباب شخصية ، واما السبب الاجتماعي العام في جميع الشعوب والأقوام ، فهو زيادة النساء على الرجال لا سيما بعد الحروب العامة التي يهلك فيها الملايين من المحاربين ، ويبقى الملايين من النساء بلا رجال فتعدد الزوجات هنا ضرورة اجتماعية لتجديد النسل وتكثير الأيدي العاملة ، وهو من مصالح النساء التي تبقى محرومة نعمة الحياة الزوجية والأمومة ، ويجب أن نعلم يقيناً ان المناداة بالمساواة بين الرجال والنساء في تعدد الزوجات والأزواج هو ضرب من الاباحة أو الجنون ، لأن تعدد الزوجات يزيد النسل ، وتعدد الأزواج يفسد الحرث والنسل . وقد قال بعض الأوربيين الاجتماعيين في بيان الفرق بين الرجل والمرأة في هذا المقام : لو أن الرجل قد تزوج بمائة امرأة في عام واحد لأمكن ان يكون له مائة ولدٍ ، ولو تزوجت أنثى بمائة رجل في عام واحد لكان لها ولد واحد او لا يكون لها شيء .

آية التعدد

يظن كثير من الناس ان الآية المبيحة للتعدد بشرط العدل ، داعية الى الاستكثار من عدد الزوجات ، والاستمتاع بصنوف المشتهيات ، مستدلين على ذلك

بجملة منها ؛ وهي : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » غافلين عن أول الآية وآخرها ؛ وسياق الآيات التي جاءت معها وسباقها ؛ والأسباب التي أنزلت في شأنها ؛ لكن الممعن في معناها يعلم انها وردت في حفظ حقوق الضعفاء ، والتحذير من اكل اموال اليتامى والنساء ، وأولها : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً . وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدةً او ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا »

وقد نزلت في اسباب عدّةٍ وما ثمّ تعارُض بينها :

١ — في اليتيمة تكون في حجر وَليها ، فيعجبه مالها ، فيريد ان يتزوج بها طمعاً في مالها او بدون مهر المثل

٢ — في منع اليتيمة من التزوج ليبقى الوليُّ متمتعاً بمالها لا ينازعه فيه الزوج

٣ — في الاستكثار من النساء ، والإغارة على أموال اليتامى من اجل ذلك

٤ — في ظلم النساء الكثيرات ، وعدم العدل بينهن .

فجاءت الآيات قاضيةً بإبطال تلك المظالم ، التي كانت عليها الجاهلية في أمر اليتامى وأمر النساء ، آمرةً بالتزوج بالمرأة الرشيدة ، إذا خيف من ظلم اليتيمة ، مبيحة الزيادة على الواحدة الى الأربع ، إذا دعت الدواعي إلى ذلك بشرط العدل بينهنّ ، فاذا خاف الرجل الظلم اكتفى بواحدة ؛ والأصل في سعادة البيوت ألا يكون للرجل اكثر من واحدة ينعم بها ؛ ويتعاون معها على تربية نسلها تربيةً صالحةً ؛ تعتزُّ بها الأمة والوطن ؛ ولكن العوارض الطبيعية والاجتماعية هي التي تلجئه إلى التعدُّد كما تقدَّم .

الطلاق

الطلاق لا يكون الا عن ضرورة وبصيرة ، وذلك بأن يكون الزوجان قانعين بأن لا سبيل لبقائهما على الحياة الزوجية لموانع جسمية أو نفسية ، خَلقية

او خُلقية ، تجعل صفو العيش كدراً ، وتعرض النسل للمهانة والشقاء ؛ فالفراق في هذه الحال نعمة لا نقمة ؛ والزوجان سعيدان به لا شقيان « وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته » وآية ذلك ان يكون الزوج في حال الطلاق عاقلاً مختاراً ؛ وان تكون الزوجة راضية مطمئنة ؛ فيمتعها متاعاً حسناً بكسوة ؛ ويفارقها بإحسان . أما إذا لم يكن موجب للفراق ؛ فلا يحلُّ له أن يضارَّها بالطلاق ، وعليه أن يذكر قوله تعالى « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » فهذا ضمان وأمان لها من الله طول حياتها عنده ما دامت قائمة بواجبها .

أما طلاق الغضبان والسكران والطلاق من اجل قضية اجنبية لا علاقة للزوجة بها فهو طلاق الظالمين لأنفسهم ولأزواجهم .

والحاصل ان مسألة الطلاق كتعدُّد الزوجات شرعت للحاجة اليها ؛ ولها شروط وقيود تثبت نفعها وتمنع ضررها ؛ وليس لدينا وقت لإيراد النصوص عليها ، على أنها معلومة مشهورة . أما الطلاق في اوربا واميركا فالظاهر انه لا يكون الا لأسباب تقع بين الزوجين خاصةً ؛ ولكنهم يطلقون لأهون الأسباب وأيسرها ؛ كقص الشعر ؛ وحلق اللحية ؛ ولباس السهرة ونحو ذلك ؛ ولذلك كثر عندهم كثرة هائلة وليس لديَّ احصاء عنه الآن وهو طلاق باعثه السآمة والملل ، وحب التنقل وله عواقب وخيمة ومنها ضياع النسل ، وقد نشرت جريدة الاهرام اول سنة ١٣٥٤ هـ وسنة ١٩٣٥ م اعتقاداً للقاضي لندمي اشهر قضاة الطلاق في لوس انجلوس من ولاية (كليفورنيه) خلاصته ان الحياة الزوجية ستزول من بلادهم (امريكة الشمالية) وتحل محلها الاباحة والفوضى في العلاقة بين النساء والرجال في زمن قريب ، وهي الآن كشركة تجارية ينقضها الشريكان لأوهى الاسباب خلافاً لهداية جميع الأديان ، إذ لا دين ولا حب يربطها ، بل الشهوات ، والتنقل في وسائل المسرات

رسم خطة عملية لاصلاح البيوت

البيوت مؤلفة من رجال ونساء وبنين وبنات ، والرجل هو المسؤول عن زوجه

وولده ، وكل من يتصل به ، وفي الحديث الصحيح : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» فيجب على الرجل ان يأخذ نفسه وأهله بأدب الدين الذي هو جماع الفضائل والآداب ، فان كان الرجل جاهلاً او ضعيفاً لا يستطيع ان يعلم هو بنفسه ، ولا ان يكون قدوةً صالحةً لغيره ، فعليه ان يستعين على ذلك برجال الأمة وهم علماؤها العاملون الأطهار ، وعلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ان يقوموا بواجب التهذيب والتعليم ، اما اذا كان الرجل آثماً وحاول أن يدخل الفسق في بيته ، ويلوث طهارته وطهارة زوجه وولده ، فما على المحصنات في البيوت والأولاد البررة الا ان يأخذوا حذرهم ، ويتعاونوا جميعاً على نصحه ومنعه ، عملاً بالآية الكريمة «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان»

وهذا الاصلاح الداخلي مطلوب من النساء لأنهن ربات البيوت ، ومربيات النفوس ، بل هن اميرات الداخل ، ومعاقل المنازل ، وما زلن اقرب الى الفطرة ، وأعف من الرجال ، وابعد عن كل مسكر وميسر ، وسائر انواع المفاسد ، وللمرأة الحق بأمر الرجل بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وتطهير بيتها من جراثيم الفساد التي يحاول الرجل الأثيم ان يلقح بها عياله واطفاله ، فتفتك بهم عاجلاً او آجلاً كما فتكت به من قبل ، فعلى النساء ان يحذرن كل الحذر ، وان يعلمن حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يذكرن الآية الكريمة « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » فقد أعطت هذه الآية الكريمة هذا الحق للرجال والنساء على السواء ، ويدخل في هذا انكارهم حتى على الخلفاء والملوك والأمراء ، وقد كان النساء يعلمن هذا في صدر الاسلام ويعملن به كالرجال .

وبعد فان لنا عتباً على المرأة الحديثة التي اخذت تعقد المؤتمرات في غير وطنها، وتطلب حقوقها من غير دينها وأمتها ، وهي تدري او لاتدري أن لها في الاسلام من الحقوق ما لم تعطه امرأة قديمة ولا حديثة ، في شريعة من الشرائع الدينية او المدنية ،

فهي تطالب بحقوق لم تسلبها ، وتشكو أمة لم تظلمها ، وشريعة لا تزال تعيش في ظلالها ، وتستنير بنورها ، فيا ليت النساء العربيات المسلمات يعقدن المؤتمرات النسائية في بلادنا ، ويجددن بها مكانة المرأة العربية ايام عصورها الذهبية ؛ فتعود عالمة عاملة ؛ آمرة ناهية ، كما فعلت تلك التي عارضت امير المؤمنين عمر بن الخطاب في مسألة المهور ، وهو واقف يخطب على منبر الرسول ، فاعترف بخطئه ، ورجع الى قولها عن قوله ، وأرى ان هذا اقرب طريق للاصلاح لأنه متى صلحت الأفراد صلحت الجماعات ، ومتى صلحت الأسرة صلحت الأمة ، والسلام .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

محاضرة للاستاذ الشيخ محمدبهجة البيطار ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي على الرجال — مساء الخميس الواقع في ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣٦٠ الموافق ٢٢ أيار سنة ١٩٤١ .

وعلى السيدات : مساء الخميس الواقع في ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ الموافق ٢٩ أيار سنة ١٩٤١

الطِرِمّاح بن حكيم الطائي

(١)

حياته

هو الطرماح بن حكيم بن الحكم بن نَفر بن قيس بن جَحدر الطائي • ويكنى ابا نَفر وابا ضُبيبة • ينتهي نسبه الى طيئ • وبنو طيئ من العرب القحطانية كانت منازلهم باليمن فخرجوا منها بحادثة سيل العرم فنزلوا بنجد والحجاز على القرب من بني اسد ، ثم غلبوا بني اسد على جبلي أَجأ وسَلمى من بلاد نجد فنزلوهما فعرفا بجبلي طيئ ، ثم افترقوا في اول الاسلام زمن الفتوح في الاقطار • ولهم بطون كثيرة في الشام والعراق [١]

كان نفر بن قيس أحد أجداد الطرماح شاعراً ذكر له ابو تمام الطائي في الحماسة هذين البيتين :

الا قالت بُهيشة مالنفرٍ أراه غيرت منه الدهورُ

وانتِ كذاكِ قد غُيرتِ بعدي وكنتِ كأنكِ الشعرى العبورُ

وكان قيس بن جحدر والدُ نفر ابنَ خالة حاتم الطائي أسره بعض ملوك بني جفنة بدمشق فدخل عليه حاتم فاستوهبه اياه وقال : [٢]

فككتَ عدياً كلها من اسارها فأفضل وشفعني بقيس بن جحدرِ

ابوه ابي والأم من أمهاتنا فأنعم فدتك اليوم نفسي ومعشري

وقيس بن جحدر هذا وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم وورد اسمه في كتب طبقات الصحابة [٣]

والطرماح من فحول الشعراء الاسلاميين ولد ومات في العصر الاموي ، ولم

---

(١) صبح الاعشى للقلقشندي ج ١ ص ٣٢٠ وبلوغ الارب له ص ٢٦٦

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٦٠ (٣) الاصابة في تمييز الصحابة ج ٥ ص ٢٦٨

ينص احد ممن ترجم له من المتقدمين على تاريخ ولادته اووفاته ولكن بعض اخباره وأشعاره تعين على معرفة ذلك على سبيل التقريب ·

ولد الطرماح في الشام ونشأ بها كما نص على ذلك كل من ترجم له دون ان يعينوا المدينة او القرية التي ولد بها · ولا يبعد ان يكون مولده حوالى منتصف القرن الأول لما سيأتي · ونحن لا نعلم من احواله وهو في الشام شيئاً بل جميع ماروي من أخباره كان بعد نزوحه عنها · ولكنه ظل يفخر بشاميته كما يفخر بقحطانيته قال :

ونجاك من أسد العراق كتائب لقحطان اهل الشام يوم استهلتِ

بهم ينصر الله الخليفة كلما رأوا نعل صنديد عن الحق زلتِ

وقال :

فبعزنا نصر النبي محمد وبنا تثبت في دمشق المنبرُ

وقال :

يماني تبوع للمساعي يداه وكل ذي حسب يماني

وانتقل من الشام الى الكوفة مع من وردها من جيوش اهل الشام ، ولا يبعد ان يكون ذلك بعد سنة سبعين اذ قمع عبد الملك بن مروان بجيوش اهل الشام نوائر العراق · وقد نكون غير مخطئين اذا قدّرنا ان الطرماح وقتئذٍ كان في العقد الثالث من عمره كأكثر الجنود عادةً · ونزل بالكوفة في تيم اللات بن ثعلبة وأخذ عن شيخ منهم مذهب الخوارج كما سيأتي · ولكن لم يرو عنه انه حارب مع الخوارج · وبالكوفة صحب الكُميت ابن زيد الاسدي الشاعر وتوثقت بينهما عرى الصداقة على اختلاف أحوالهما · قال صاحب الأغاني : « كان الكميت بن زيد صديقاً للطرماح لايكادان يفترقان في حال من احوالهما فقيل للكميت لاشيءُ اعجب من صفاء ما بينك وبين الطرماح على تباعد مايجمعكما من النسب والمذهب والبلاد هو شامي قحطاني (خارجي) وانت كوفي نزاري شيعي فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟ فقال اتفقنا على بغض العامة » [1]

(١) انظر أيضاً البيان والتبين للجاحظ ج ١ ص ٥٦

وذهب من الكوفة الى بلاد فارس وذكر عدة مواضع منها في شعره مثل بم وكرمان وفج الريح والقافزان وقزوين قال :

ألا أيها الليل الطويل الا اصبح ببم وما الاصباح فيك بأروح
لئن مرّ في كرمان ليلي فربما حلا بين تلي بابل فالمضيح

وقال :

طربت وشاقك البرق اليماني بفج الريح فج القافزان
الم تر ان عرفان الثريا يهيج لي بقزوين احتزاني

وذكر الجاحظ في البيان والتبيين [1] ان الطرماح أقام بالري يشتغل بالتعليم .

وعاد الطرماح الى الكوفة واقام بها الى ان توفي . قال ابن شبرمة : « كان الطرماح لنا جليساً ففقدناه اياماً كثيرة فقمنا بأجمعنا لننظر ما فعل وما دهاه فلما كنا قريبا من منزله اذا نحن بنعش عليه مطرف اخضر فقلنا لمن هذا النعش فقيل هذا نعش الطرماح فقلنا والله ما استجاب الله تعالى له حيث يقول :

واني لمقتاد جوادي وقاذف به وبنفسي العام احدى المقاذف
لأكسب مالاً او أؤول الى غنى من الله يكفيني عدات الخلائف
فيارب ان حانت وفاتي فلا تكن على شرجع [2] يعلى بخضر المطارف
ولكن قبري بطن نسر مقيله بجو السماء في نسور عواكف
وامسي شهيداً ثاوياً في عصابة يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم تقى الله نزالون عند التزاحف
اذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا الى موعود ما في المصاحف »

ويقول ابو هلال العسكري في جزء من كتاب التصحيف [3] ان الطرماح بقي بعد الفرزدق . والفرزدق توفي سنة اثنتي عشرة ومئة . فلا يبعد ان يكون مات بعده بقليل لأنه ليس في أخباره أو شعره ما يدل على انه عاش طويلاً بعد ذلك التاريخ .

(١) ج ٢ ص ٢٥٧ (٢) الشرجع النعش (٣) مخطوط ص ١٥

ولم يرو عن الطرماح انه اتصل بأحد من خلفاء بني أمية او مدحهم ولكنه مدح من أمراء العراق يزيد بن المهلب وهو قحطاني واشار الى مقتله يوم العقر سنة اثنتين ومئة بقوله :

كتائب من قحطان بالعقر اوقعت وقائع فيهـا أعظمت وأجلتِ

ومدح ابنه مخلد بن يزيد الذي توفي فتى في حياة ابيه حوالى سنة مئة[1] كما مدح خالد بن عبد الله القسري وهو قحطاني ايضاً (ولي العراق سنة خمس ومئة وقتل سنة ست وعشرين ومئة) وكان خالد يجله ويؤثره . ورد في الاغاني : ان الطرماح دخل على خالد فانشده قوله :

وشيبني ما لا ازال مناهضاً بغـير غنى اسمو به وابوعُ

وان رجال المال اضحوا ومالُهم لهم عند ابواب الملوك شفيع

أمخترمي ريب المنون ولم انل من المال ما اعصي به واطيع

فأمر له بعشرين الف درهم وقال امض الآن فاعص وأطع .

ومدح الطرماح خالداً فأقبل على العريان بن الهيثم وقال له : اني قد مدحت الأمير فأحب ان تدخلني عليه ، فدخل اليه العريان فقال له : ان الطرماح قد مدحك وقال فيك قولاً حسناً . فقال مالي في الشعر من حاجة . فقال العريان للطرماح تراءَ له . فخرج معه فلما جاوز دار زياد اذا شيءٌ قد ارتفع فقال يا عريان انظر ما هذا فنظر ثم رجع فقال : أصلح الله تعالى الأمير هذا شيءٌ بعث به اليك عبد الله بن ابي موسى من سجستان فاذا حمر وبغال ورجال وصبيان ونساء ، فقال يا عريان اين طرماحك هذا ؟ قال : ههنا قال : اعطه كل ما قدم به . فرجع الى الكوفة بما شاء ولم ينشده .

ووقعت مهاجاة بين الطرماح وبين الفرزدق كان الطرماح موفقاً فيها كثيراً .

أما أهل بيت الطرماح فنعلم ان اسم زوجه سلمى فقد ذكرها في شعره كما ذكر أيضاً اسم ابنه صمصامة قال :

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٣٥٤

أيا سلمَ ان ارجع اليك فربما رجعت وأمري للعدى غير مفرحِ
أحاذر يا صمصام ان مت ان يلي تراثي واياك امرؤ غير مصلح

وورد في الأغاني ان له ابناً اسمه صبيرة ولصبيرة هذا ولد اسمه يحيي روى عنه ابو عبيدة . ومن احفاد الطرماح امان بن الصمصامة بن الطرماح كان شاعراً نحوياً عالماً باللغة والشعر حافظاً للقريض وكان كاتباً عند المهالبة في افريقية فلما تولى افريقية ابراهيم بن الأغلب سنة أربع وثمانين ومئة وكان ينتسب الى بني تميم اطرحه لأن جده الطرماح هجا بني تميم [1]

ثقافته وصفته وأخلاقه

كان الطرماح واسع الرواية تعلم النحو وطلب غريب اللغة وعلّم الأدب وقد يكون اول من تثقف من الشعراء الاسلاميين على سبيل الطلب والدرس . وهو معدود في الخطباء الفصحاء كما هو معدود من فحول الشعراء . قال الجاحظ « ومن الخطباء الشعراء الطرماح بن حكيم الطائي وكنيته ابو نفر [2]» وقال ايضاً « وكان الكميت والبعيث والطرماح شعراء خطباء [3]» ولكن خطب الطرماح لاتزال سراً مكتوماً في صدر الزمان .

أما حسن تعليمه فقد قال الجاحظ ايضاً : « قال عبد الأعلى رأيت الطرماح مؤدباً بالري فلم أر احداً آخذ لعقول الرجال ولا اجذب لأسماعهم الى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده كأنهم قد جالسوا العلماء [4]»

وفي الأغاني [5] ان الكميت أنشد قول الطرماح :

اذا قُبضت نفس الطرماح اخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائدِ

فقال اي والله وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة .

---

(١) مقدمة ديوان الطرماح عن معجم الادباء لياقوت ج٢ص ٣٩١ وبغية الوعاة للسيوطي ص ٢٠٠
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٦ (٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٧٢ (٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٥٧ (٥) ج ١٠ ص ١٦٩

وما وصل الينا من شعر الطرماح مع بعض أخباره يدل على استقامة وجد وحزم وتقوى شأن اكثر الخوارج ، فلم يكن يميل الى العبث واللهو بل يغلب عليه الجد والتصاون كما انه كان بعيداً عن مداراة الأمراء ومداجاتهم يرى نفسه اكبر من أن يقف بحضرة امير وينشده الشعر . قال صاحب الاغاني : « وفد الطرماح بن حكيم والكميت بن زيد على مخلد بن يزيد المهلبي فجلس لهما ودعاهما فتقدم الطرماح لينشد فقال له أنشدنا قائماً فقال كلا والله ما قدر الشعر ان اقوم فيحط مني مقامي وأحط منه بضراعتي وهو عمود الفخر وبيت الذكر لمآثر العرب فقيل له فتنح . ودعي الكميت فأنشد قائماً فأمر له بخمسين الف درهم فلما خرج الكميت شاطرها الطرماح وقال له : أنت ابا ضبيبة أبعد همةً وانا ألطف حيلةً »

والطرماح مع علو همته وأنفته فخور تياه يفخر بنسبه ونفسه ويتعصب للقحطانية على العدنانية ويعتز بقبيلته واسلاميته وشآميته ، وأشعاره في ذلك غير قليلة . قال صاحب الأغاني : « مرّ الطرماح في مسجد البصرة وهو يخطر في مشيته فقال رجل من هذا الخطار فسمعه فقال انا الذي أقول :

لقد زادني حباً لنفسي انني بغيض الى كل امرئ غير طائل
واني شقي باللئام ولا ترى شقياً بهم الا كريم الشمائل
اذا ما رآني قطع الطرف بينه وبيني فعل العارف المتجاهل »

مذهبه

« لما ذهب الطرماح من الشام الى الكوفة نزل في تيم اللات بن ثعلبة و كان فيهم شيخ من الشراة له سمت وهيئة ، وكان الطرماح يجالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ودعاه الشيخ الى مذهبه فقبله واعتقده اشد اعتقاد وأصحه حتى مات عليه » . هكذا يقول صاحب الأغاني . ويقول ابن جرير الطبري [1] ان القعقاع بن قيس عم الطرماح كان يرى رأي الخوارج . فلا يبعد ان يكون الطرماح كتم

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٣

مذهبه وهو في الشام خوفاً من الخلفاء فلما ذهب الى الكوفة أعلنه . ويقول صاحب الأغاني انه كان يعتقد مذهب الازارقة من الشراة ويجعله الجاحظ [١] من الصفرية وكلتا الفرقتين من الخوارج وأصولها واحدة واختلافها في الفروع غير ذي بال [٢] والازارقة اكثر تشدداً والصفرية ألين جانباً . ولعل ما قاله الجاحظ هو الصحيح لأنه لم يرو عن الطرماح انه قاتل مع الخوارج بل مدح بعض امراء العراق من قبل بني أمية وذكر خلافتهم بخير . وشعره يدل دلالة واضحة على انه يعتقد مذهب الخوارج اصح اعتقاد من ذلك قوله :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له ان لم أفز فوزة تنجي من النارِ
والنار لم ينج من روعاتها أحد الا المنيب بقلب المخلص الشاري

وقوله :

لله در الشراة انهم اذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجّعون الحنين آونةً وان علا ساعةً بهم شهقوا
خوفاً تبيت القلوب واجفةً تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف ارجي الحياة بعدهم وقد مضى مؤنسيَّ فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم بالفوز مما يخاف قد وثقوا

ولكنه لم يكن خشناً ولا متزمتاً وصداقته للكميت بن زيد الشيعي دليل على دماثته ولين جانبه .

شعره

الطرماح من فحول الشعراء الاسلاميين تغلب عليه الجزالة حتى تنتهي به في كثير من شعره الى الغريب والعويص ، ويظهر على شعره أثر الاسلام والايمان بما أتى به والرغبة فيما دعا اليه والخوف مما نهى عنه فهو من هذه الجهة يشبه الفرزدق ويزيد عليه بالجد والتصاون وخلو شعره من العبث والمجون والغزل الفاحش .

نقرأ شعر الطرماح فنرى نفس شاعر فارس جم المروءة حمي الأنف كبير النفس

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٤ (٢) انظر كتاب الفرق بين الفرق ص ٦٢ و ص ٧٠

حسن الايمان لا يكاد يصرف شعره في سبيل التكسب والزلفى بل يرسله معبراً عما يختلج في نفسه من بواعث الشعر فيصف ويتغزل ويفتخر ويهجو ويرسل المثل وينطق بالحكمة والموعظة . وتكاد تكون جميع قصائده الطويلة من هذا النوع لم يمدح بها أحداً ولم يرث بها أحداً قالها لوجه الشعر فشق نفسه في زمن كثر فيه المداحون المستجدون

أما وصفه فهو أشبه بوصف شعراء الجاهلية يصور البادية وحياتها وطبيعتها ومافي أرضها وسمائها على انه حضري نشأ في الشام ودخل بلاد فارس وأقام بها ولكن إلهام البادية في وصفه أظهر وعزيف جنها اوضح يعبق فيه الشيح والقيصوم ويلمع السراب وترغو الابل وهو في جملته وصف دقيق فيه حياة متحركة يتناول الدقيق والجليل ولكن غرابة اللغة في كثير منه تجعله غريباً عن الأذواق .

وأما غزله ففيه حنين يبعث الحنو وتشوق يثير الوجد ولوعة تنزى وعاطفة شريفة يرسله أنفاساً حرى من غربته في بلاد فارس الى سلمى التي ملكت قلبه وشغلته عمن سواها ، وسلمى هذه هي امرأته وما أعجب قوله فيها :

كأن فؤادي بين أظفار طائر ... اذا سنحت ذكراكِ من غير مسنحِ
وذكراكِ ما لم تسعف الدار بيننا ... تباريح من عيش الحياة المبرح
أيا سلم ان ارجع اليك فربما ... رجعت وامري للعدى غير مفرح
أصمصام ان تشفع لأمك تلقها ... لها شافع في الصدر لم يتبرح
هل الحب الا انها لو تعرضت ... لذبحك يا صمصام قلت لها اذبحي

«وصمصامة هذا ابنه» ولا شك في ان الغربة ارهفت عاطفة حب الأهل والبنين والوطن في نفسه وجعلته مشفقاً من حوادث الزمان يخشى ان تغتاله المنية وهو بعيد عنهم قال :

أحاذر يا صمصام ان مت أن يلي ... تراثي واياك امرؤ غير مصلحِ
اذا صك وسط القوم رأسك صكة ... يقول له الناهي ملكت فأسجح
وناصرك الأدنى عليه ظعينة ... تميد اذا استعبرتَ ميد المرنح

مفجعة لا دفع للضيم عندها سوى سفحان الدمع من كل مسفح
اذا جئتها تبكي بكت وتذكرت مع الحزن صولات امريءٍ غير زمح

وأما فخره فمن ابواب شعره الجيدة ينم على اعتداده بنفسه وزهوه بها وافتخاره بفضائله الخاصة وكرم قبيلته ومآثرها واحتقاره للطبقة الدنيا من الناس وعدم احتفاله بالعامة وما أعرف فخراً احلى عنجهية من قوله :

« لقد زادني حباً لنفسي أنني » الأبيات

يتبع

خليل مردم بك



كلمة (فنْد شمع)

(من أين جاءت ؟ وكيف استعملت ؟ وشيء من تاريخها)

أضع اليوم رسالة بعنوان (مكتبة آل المغربي بطرابلس الشام ٠ وصفها وتاريخ جمعها وذكريات عنها) وقد كلفني الكتابة في هذا الموضوع رصيفي الاستاذ الفيكنت فيليب دي طرازي ٠ لأنه مزمع تأليف كتاب باسم (خزائن الكتب العربية) وهو الكتاب الذي نوّه به الاستاذ رئيس المجمع في الجزء الأول من السنة الماضية ٠

وبينا انا استعرض كتب خزانتنا اذا كتاب من مخطوطاتها عنوانه (كتاب شرح ديوان ابي العلاء المعري لابن الدرة) (كذا بالهاء ذات النقطتين في آخرها) وتحت هذا العنوان عنوان آخر هذا نصه (سَفَط العقيان والحلى لعروس ديوان ابي العلا ٠ بل ضوء الفند ٠ من سقط الزند ٠ للمرحوم الشيخ محمد الدرا (كذا بالألف في الآخر بدل الهاء) وهو أحسن شروحه اه وقد قال المؤلف في مقدمة شرحه ما نصه (وقد كنت حين الشروع في هذا الشرح سميته (سفط العقيان والحلى لعروس ديوان أبي العلا ثم اني بعد الفراغ منه والاتمام ٠ رأيت في عالم الخيال والمنام ٠ أني استقدح زنداً ٠ واستصبح منه فنداً ٠ فعبرت ذلك ان سميته : ضوء الفند ٠ من سقط الزند) ثم قال المؤلف في خاتمة الكتاب إنه فرغ من تأليفه في جدّة سنة ١٠٦٤ هـ وبيض المؤلف منه اربعة كراريس الى ان قدم بلده دمشق ٠ وتوفي فيها سنة ١٠٦٥ هـ وقام بعده ابن اخته عبد الحق بن علي الدرّا فأكمل بياض الشرح في سنة ١٠٩٥ هـ ولعل مخطوطة خزانتنا هي نفسها التي كتبها عبد الحق ٠ وقد بحثت عن نسخة أخرى سواها لدى آل الدرا وفي المكتبة الظاهرية وفي فهرست دار الكتب المصرية فلم اظفر بشيء ٠ والسفط بالفاء المفتوحة وعاء الطيوب والجواهر ونحوها ٠ اما تسمية الكتاب بالاسم الثاني اعنى (ضوء الفند) فهو موضع تساؤل : من اين جاءت

كلمة (فند) الى لغتنا العربية واذا لم تكن عربية بل دخيلة معرَّبة فكيف جاز للمؤلف ان يستعملها منذ ٣٠٠ سنة ؟

عهدي بكلمة (فند) وتضاف الى الشمع فيقال (فند شمع) — أنها عامية محضة وكنت من يوم نشأت اسمع الناس في طرابلس يقولون (فند شمع) ويريدون بالشمع الشمع الذي يستضاء به بل اذا انعمنا النظر في كلامهم نراهم يريدون به في اكثر الأوقات عدة شمعات تباع في غلافها المتخذ من الورق الثخين الازرق . ويقال احياناً (دَزدبنة شمع) مكان (فند شمع) وقد راجعت عن كلمة (فند) كل ما عندي من كتب اللغة فلم اعثر عليها كما راجعت معجم شمس الدين سامي ومعجم لاروس والمعجم الانكليزي فلم أرها بين كلمات هذه اللغات وسألت اخواننا اهل دمشق عما اذا كانوا يستعملونها في لهجتهم اليومية فقالوا انهم لا يعرفونها . ولا سمعوا بها . فمن أين وصلت الى مؤلف (ضوء الفند) وهو دمشقي النشأة والوفاة حتى سمى كتابه بها منذ ثلاثة قرون . ثم خطر لي ان اراجع معجم اليسوعيين (الفرائد الدرية) فوجدته يقول (فند الشمع وجمعه فنود Bougie. Cierge)وضبط فاء (فند) بالكسر وعهدي بالطرابلسيين انهم ينطقونها بالفتح . وجمعها في الفرائد على فنود والاقيس ان تجمع على افناد اذا صح انها مكسورة الفاء . وقد وُضعت أمامها العلامة التي تفيد ان الكلمة عربية عامية وان اكثر استعمالها بين عامة لبنان . لكنه (اي صاحب الفرائد) لم يشر الى المعدن التي منه نبتت . وعنه اغتربت . فمن أين جاءتنا اذن ؟

وأخيراً رجعت الى الحاج علي أكبر الشيرازي وهو شيخ معمَّر من النزلاء الايرانيين بدمشق وقد اعتدت ان استفتيه في الكلمات الفارسية او الايرانية الحديثة فلعل (فندا) من هذه الكلمات وقلت له انها تدل على معنى الشمع فقال انه لا يعرفها وانما يعرف كلمة (فندك) ويتذكر أنه وهو صغير في شيراز كان يرى اهله يتخذون اناءً صغيراً من زجاج يملؤونه ماء ويصبون على الماء مذوب الشحم وعلى الشحم شمعة او فتيلة صغيرة يستضيئون بها في الليل مكان البترول وانهم يسمونها (فندك)

هذا ماقاله فلعل كلمة (فندك) جاءتنا مع السلع التي كانت ترد الينا من ايران في القرن الماضي وما قبله ثم حرفت الى كلمة (فند) واطلقناها على الشمع . واناء الاستصباح الذي ذكره الحاج علي اكبر يسمى في دمشق (ادارة) وفي طرابلس الشام (نوّاسة) و (إرّاية) واذا لم يصح ان (فند) ايرانية وان اصلها فندك كان لنا ان نتبنّاها نحن معشر العرب وندّعي عروبتها حتى تقوم لغة أخرى فتستلحقها . ونقيم الدليل على نسبتها اليها :

* * *

(الفند) بكسر الفاء لها في اللغة العربية عدة معان لا يمكن ان يكون معنى (الفند) جاء منها . اللهم الا من معنيين :

(الأول) ان الفند يكون بمعنى (الطائفة من الليل) كما في نهاية ابن الأثير . فهل يسمح لنا أن نقول ان استعمال (فند الشمع) جاء من هذا المعنى على تأويل ان الظلمة تنجاب وتنكشف بنور هذا الشمع . ولا انكر ان في هذا التوجيه تكلفًا : لأن الظاهر ان يقال : شمع الفند اي شمع الظلام لا فند الشمع اي ظلام الشمع

(الثاني) ان (الفند) في اللغة يكون ايضاً بمعنى الغصن من اغصان الشجر . وفند الشمع او شمعاته هي شبيهة بأغصان تغرس ليلاً في المجالس . فيُجنى منها بدل الثمار نورٌ يطرد الحنادس . فهل يوافقني قارئي الكريم على ان معنى (الفند) جاء من هذا المعنى المجازي ثم تنوسي بالمرّة ان الفند بمعنى الغصن وصار يفهم منه معنى الشمع حتى صار الشمع معنى حقيقياً له . ومثله كثير في كلمات اللغة العربية : تكون الكلمة مجازا ثم تصبح بسبب تواتر الاستعمال حقيقة .

نرجع الى عبارة المؤلف (الدرّا) في مقدمة كتابه وهو قوله (استقدح زندا . واستصبح منه فندا) فمعناه : استوري من الزند نوراً كنور الشمع . وقوله (مميته ضوء الفند من سقط الزند) السقط الشرر المتناثر من الزند . فيكون المعنى : مميته ضوء الشمع المستخرج من شرر الزند . مريداً بذلك ان شعر ابي العلاء كالشرر

فهو (اي المؤلف) استخرج منه نوراً · ازداد به الشرر ظهوراً · لكن المؤلف لو قال (على سقط الزند) مكان (من سقط الزند) لكان احسن

وقال ناسخ المخطوطة عبد الحق الدرا في آخرها ما نصه (ولم تزل هذه اللؤلؤة (يعني كتاب خاله) في صدفة المسودة · تمضي عليها مدة بعد مدة · وهي كالعنقاء · يسمع اسمها · ولا يرى جسمها · حتى كادت تخفى · ونور هذا الفند يطفى · إلى أن يسر الله تبييضها الخ

فانظر كيف ان كلمة (فند) قد مرنت عليها ألسنة الدماشقة في ذلك العهد · الى هذا الحد · ويزيدك دلالة على ذلك ان المؤلف لم يفسر في كتابه لمن جاء بعده معنى كلمة (الفند) مع انه فسر نحو الف كلمة من عويص الكلمات · ونسي هذه الكلمة الواحدة التي جعلها اسماً لكتابه · ولا سيما انه سنحت له الطف المناسبات لتفسير معنى (فند الشمع) · وذلك انه فسر لنا في تأليفه قول (ابي العلاء) يخاطب الدهر :

(تستأثر العقبانَ في جوها وتُنزل الأعصمَ من فنده)

ففسر كلمة (الفند) بالقطعة من الجبل لكنه لم يفسر لنا كلمة الفند بمعنى الشمع · ومن أية لغة جاءت ؟ ومن أيّ جانبٍ على لغتنا دَمَرَتْ ؟ ألا يكون هذا من مواضع العجب ؟

ولقائل ان يقول ان المؤلف رأى كلمة (الفند) معروفة المعنى مألوفة الاستعمال بين اهل زمنه ومثلها لا يحتاج الى تفسير · وهذا كما اذا قام احدنا والف رسالة في تكذيب ما تناقلته العرب من أخبار الغيلان وسمى رسالته (إيقاد البترول على اخبار الغول) أتراه يفسر لنا معنى كلمة (البترول) الأعجمية ؟ · وهكذا اشتهرت كلمة (الفند) بمعنى الشمع بالنسبة الى الدماشقة في زمن المؤلف فأصبح تفسيرها مما لا حاجة اليه

على ان كلمة (فند) ان كانت عادت فماتت في دمشق فانها لم تزل حية — فيما أظن — في طرابلس الشام وما يليها من مدن الساحل ·

وتتبع تاريخ كلمات اللغة وتطورها بحث لغوي جديد يحتفل له علماء اصول اللغات من علماء اوربا . فينبغي للمشتغلين منا في علم اللغة ان ينحوا هذا العلم الطريف جانباً من عنايتهم واهتمامهم

وبهذه المناسبة نقول : انه كان قديماً لصنع الشمع والمتاجرة به سوق رائجة في دمشق : أيام كان ركب الحج والحجاج يغدون ويروحون بين الشام والحجاز وكان الحجاج واهلوهم ومودعوهم يهدون وينذرون الشموع للمسجد النبوي والأضرحة الشريفة . وكان في دمشق معامل وعمّال وعائلات ترتزق من صنع فنود الشمع . وما زال الى اليوم يسمى بعض هذه العائلات بالشماع . ففي هذا المحيط تولدت كلمة (الفند) بمعنى الشمع وكذلك تولدت مثل هذا التولد بين النصارى بالنسبة إلى الشمع الذي يهدى من مزارات القدس وإليها كذا أخبرني لفيف من قساوسة الروم الأرثوذكس .

* * *

والشيخ محمد مؤلف ضوء الفند ترجمه المحبي في (نفحة الريحانة) وفي (خلاصة الأثر (جزء ٤ ص ٢٤٩) وتكرر اسمه فيه بلفظ (الدرا) بالألف لا (الدرّه) بالهاء . وقال عنه : إنه حضر دروس الشيخ عبد الرحمن العمادي والنجم الغزي . ورحل الى القاهرة . وجاور بمكة . وعمل فيها شرحاً على (سقط الزند) ثم ادركه المرض ولم يكمل الشرح ! ! وجعل كتابه برسم خزانة الشريف (زيد بن محسن) وقال : إنه ولد سنة ١٠٢٨ ﻫ وتوفي بدمشق سنة ١٠٦٥ ﻫ ودفن بجبانة باب الصغير اﻫ غير ان المحبي اخطأ في قوله : ان المؤلف لم يكمل شرحه على سقط الزند بل نقول إنه اكمله تأليفاً . لكنه لم يكمله تبييضاً . فأكمل تبييضه ابن اخته (عبد الحق) كما نقلناه عن مخطوطتنا في صدر مقالنا هذا .

اما ان اسم المؤلف (الدرّة) بالهاء او (الدرا) بالألف فأذكر خلاصة ما سمعته من الاخوان الدمشقيين في التفرقة بينهما قالوا : في دمشق اسرتان بهذا الاسم احداهما مقيمة في دومة احدى مدن الغوطة . والاسرة الأخرى وافدة من حمص واوطنت دمشق منذ القديم . وزاد آخر فقال والأسرة الدومانية هي التي تكتب (الدرة) بالهاء

على اسم الطائر المعروف الذي يسمعنا صوتاً يحكي كلام الناس . اما الأسرة الحمصية فيكتب اسمها (الدرّا) بفتح الدال وبالألف المقصورة وزاد ثالث ان اصل (الدرّا) (الدرّاء) بهمزة في آخرها على وزن غرّاء فقصرت قال : وإنما لقبت هذه العائلة بالدرّاء لأن رجالها اشتهروا بخاصة جزيلة النفع إلٰهية الصنع : ذلك ان المرضع من النساء اذا خانتها درّتها . وخافت على طفلها . قصدت كبير بيت الدرّا فيضع يده المباركة على ثديها . ويتلو دعاءً عجيباً توارثوه بينهم فيستدر لبنها . وتصبح (درّاء) غزيرة اللبن . بعد ان كانت (جدّاء) لا لبن في ثديها .

اقول : لكن اهل اللسان لايعرفون كلمة (الدرّاء) بمعنى المرأة ذات الدر وانهم ربما يقولون في صفتها (درور) لا (دراء) فقولهم (الدرا) اذن من مخترعاتهم وعلى هذا يكون معنى (بيت الدرا) العائلة المنسوبة الى المرأة (الدراء) التي ردّوا لهفتها . وأرجعوا إليها درّتها . وهناك احتمال آخر وهو أن تكون كلمة (الدرّا) محرفة عن (الدِرّة) بمعنى لبن المرضع الذي يسيل من ثديها . ومؤلف (ضوء الفند) من هذا البيت على ما يقال .

المغربي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المكثرون من التأليف والمجوّدون فيه [1]

من مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق كتابان عظيمان : كتاب الكواكب الدراري في تبويب مسند الامام أحمد على ابواب البخاري لجامعه ابي الحسن علي بن عروة الحنبلي من أهل القرن التاسع ، وكتاب تاريخ دمشق الكبير لواضعه الحافظ ابي القاسم ابن عساكر من أهل القرن السادس .

هذان السفران الجليلان آيتان ناطقتان على طول نفس القدماء في التأليف ، وجد من الأول مجلدات كثيرة ضخمة الموجود منها اربعة وأربعون مجلداً متفرقة ، ومما وجد منها المجلد الثاني والعشرون بعد المئة فلا يظن ان الكتاب بلغ أقل من مئة وخمسين مجلداً في التفسير والحديث والاصول والفقه وتراجم الحنابلة ومباحث في الفلسفة والكلام والتاريخ والأدب ، فهو معلمة اسلامية حقيقية ضمت بين جوانحها اشهر كتابات علماء الحنابلة وكبار مجتهدي الأمة مثل شيخ الاسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن رجب وغيرهم من الاعلام .

وأما تاريخ دمشق فمنه الآن نسختان نسخة في عشرين مجلداً ونسخة وقعت في عشرة مجلدات ضخمة وهي تامة وكان كتب في ثمانين مجلداً . ولقد جرى ذكره في مجلس حافظ مصر زكي الدين المنذري وطال الحديث في امره واستعظامه فقال الحافظ : ما أظن هذا الرجل الا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت ، والا فالعمر يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبه . قال ابن خلكان : ولقد قال الحق ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول ومتى يتسع للإنسان الوقت حتى يضع مثله وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره وما صح له هذا الا بعد مسودات ما يكاد ينضبط حصرها وله غيره تواليف حسنة . ويعتبر ابن عساكر على كثرة ما كتب من المجودين في تأليفه

افتح اي كتاب من كتب التراجم ولاسيما تراجم أهل القرون الستة الأولى للاسلام ،

---

(١) من مسامرة للاستاذ محمد كردعلي القاها في مذياع الشرق في بيروت راجع المجلد الخامس والمجلد الثامن من مجلة المقتبس

تسقط على مبلغ عناية رجالنا بالتأليف وتوفرهم على النفع ، وقد يظن ان معظم ماخلفوه من كتبهم هو ديني محض ولا أثر لهم في العلوم الدنيوية ، ولكن بعضهم جمعوا الدين والدنيا وكانوا يعتقدون بأن العلوم بأسرها نافعة .

هذا ابو محمد بن حزم الظاهري ، وأهل الظاهر نفاة القياس والتعليل ، وهو معدود في الطبقة الأولى بين علماء الدين ومع هذا تجد له تآليف ممتعة فيما نعتبره من علوم الدنيا فقد ذكر غير واحد من علماء الاندلس ان تصانيفه في الفقه والحديث والاصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الادب والرد على المخالفين نحو من اربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين الف ورقة . وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان قبله الا لابي جعفر محمد بن جرير الطبري ، فانه اكثر أهل الاسلام تصنيفاً فقد ذكر ابو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ ابي جعفر الطبري الكبير ان قوماً من تلاميذ ابي جعفر لخصوا ايام حياته منذ بلغ الحلم الى ان توفي في سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة ، ومن جملة تآليفه التفسير الكبير والتاريخ الذي هو أصح التواريخ وأثبتها وكلاهما مطبوع متداول وهو الذي قال لتلاميذه : هل لكم أن أملي عليكم كتاباً في التاريخ قالوا وكم يكون حجمه فقال : ثلاثون الف ورقة فاستعظموا ذلك وارادوه على الاختصار حتى أملاه عليهم في ثلاثة آلاف ورقة فجاء كما رأيناه اليوم احد عشر مجلداً ضخماً أملاه بهذا القدر وهو يحوقل ويقول : ماتت الهمم . لأن تلاميذه لم يوافقوه على جعل تاريخه ثلاثين الف ورقة . ومن أهم تآليف ابن حزم : كتاب « طوق الحمامة » وهو من أجمل ما كتب اديب في العشق والغرام ، وما كان من المستغرب في عصره وعصره عصر زهو العلم في الأندلس ان يتحدث العالم الى الناس بشعوره وعاطفته .

وابن جرير في نظري وابن حزم في إكثارهما من التآليف كانا غاية الكمال

في الإجادة المجمع عليها مثل ابن تيمية من أهل القرن الثامن فقد قال فيه أحد واصفيه ان له من المؤلفات والقواعد والفتاوى والأجوبة والرسائل والتعاليق مالا ينحصر ولا ينضبط ولا أعلم أحداً من المتقدمين ولا من المتأخرين جمع مثل ماجمع ولا صنف نحو ما صنف ولا قريباً من ذلك ، مع ان تصانيفه كان يكتبها من حفظه وكتب كثيراً منها في الحبس وليس عنده ما يحتاج اليه ويراجعه من الكتب . وقال غيره : كان الامام يكتب في اليوم والليلة من التفسير او من الفقه او من الأصلين او من الرد على الفلاسفة الأوائل نحواً من أربعة كراريس او أزيد ، وما يبعد أن تصانيفه الى الآن تبلغ خمسمائة مجلد وله في غير مسألة مصنف مفرد في مجلد ، وجمع بعض الناس فتاويه بالديار المصرية مدة مقامه بها سبع سنين في علوم شتى فجاءت نحو ثلاثين مجلداً وقيل ان تآليفه تبلغ ثلثمائة مجلد . وكل ما كتبه وأملاه مجّود فيه للغاية كان على الأيام موضع اعجاب اوليائه واعدائه .

ومثله ابو الفرج ابن الجوزي الواعظ من علماء القرن السادس صنف في فنون عديدة وكتبه أكثر من أن تعد وكتب بخطه شيئاً كثيراً والناس يغالون في ذلك حتى يقولون انه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره وقسمت الكراريس على المدة فكان ماخص كل يوم تسع كراريس . وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل ويقال انه جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث الرسول فحصل منها شيء كثير ، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته ففعل ذلك فكفت وفضل منها . وهو من المعدودين في المجودين .

ومن المكثرين من التأليف المجودين للغاية ابن الهيثم الرياضي الطبيعي فقد عدد ابن ابي أصيبعة مصنفاته في زهاء اربع صفحات هذا عدا ما ضاعت دساتيره منه لما فارق البصرة والاهواز وانتقل الى مصر قال : وما أظنها تنقص عن مئة مجلد . ومثله الفارابي احد فلاسفة الإسلام كان مكثراً من التأليف ، وقد اضاع اكثرها لأنه كان يكتب في رقاع كيفما اتفق ويختار الفلاة ومجاري الأنهار

للتأليف فتطير الاوراق التي يكتبها . والفارابي أحد فلاسفة الاسلام ذو فنون شتى وفكر بديعة مخترعة .

ومثلهما ابو الريحان البيروني له في الرياضيات والنجوم اليد الطولى ، وكان مكباً علي تحصيل العلوم منصباً على التصنيف ، لا يكاد يفارق يده القلم وعينه النظر وقلبه الفكر ، دخل عليه بعض اصحابه وهو يجود بنفسه فقال له في تلك الحال : كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدة فقال : أفي هذه الحال قال : ياهذا أودع الدنيا وأنا عالم بها أليس خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها قال : فذكرتها له وخرجت ، فسمعت الصريخ عليه وانا في الطريق . قال ياقوت : واما تصانيفه في النجوم والهيئة والمنطق والحكمة فانها تفوت الحصر ورأيت فهرستها في وقف الجامع بمرو في ستين ورقة . وقال بعض مترجميه : ان كتبه زادت على حمل بعير . ولم يبق منها سوى أربعة كتب طبعت في اوربا . وكل ما وضع من تآليفه في العلوم مما ترتفع به رؤوس أبناء هذه الأمة على كر الدهور والاعصار .

والبيروني أحد كبار فلاسفة العرب يجيء في طبقة ابن سينا وابن رشد وابن زهر والفارابي ومثلهم الكندي فيلسوف العرب وكتبه في علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والارثماطيقي والموسيقى والنجوم وغير ذلك وقدعدد اسماءها ابن النديم في ست صفحات . ومثله ابو بكر بن زكريا الرازي صاحب المصنفات الممتعة في الطب والعلوم العقلية والادب وهو الذي استنار الغربيون لأول نهضتهم بمصنفاته وأول ماطبع عندهم من تآليف العرب كتبه واجادته في تآليفه على كثرة ما كتب منهامماتفاخر بهھذه الملة .ومن المكثرين من التأليف والمتفوقين فيه حنين بن اسحق وثابت بن قرة وتآليفهما فلسفية علمية وهمامع الكندي من أئمة النقل من اليونانية الى العربية ومن المحسنين في تواليفهم

ومن المكثرين من التآليف الغزالي والماوردي وعمرو بن بحر الجاحظ والزمخشري وهذان الأخيران من أئمة المعتزلة قيل في الأول ان تآليفه تعلم العقل وفي الثاني ان تآليفه يكتفى بها في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان والأدب

ولا يظن أن أحداً ألف من الكتب المنوعة اكثر مما الف الجاحظ ولا اجاد اجادته في

كل ما خاض عبابه وتآليفه بلغت ٣٥٠ أكثرهامن المفقود ويا للأسف. ومن المكثرين من ائمة المعتزلة القاضي عبد الجبار قيل ان تآليفه التي وضعها في كل فن اربعمائة الف ورقة . ومن ائمة المعتزلة كثيرون من جاوزت مؤلفاتهم المئة والخمسين الف ورقة .

وكتب المعتزلة بادت كلها بتعصب خصومهم عليهم ولم يبق منها سوى كتب تعد على أصابع اليد من ألوف ألفوها. وكان خلف بن احمد (٣٩٩) كما قال العتبي في تاريخه مغشي الجناب من أطراف البلاد لسماحة كفه وغزارة سيبه ، وأفضاله على أهل العلم وحزبه ، وقد مدح على ألسنة الشعراء والعلماء بما هو سائر وذكره في الآفاق طائر . وقد كان جمع العلماء على تصنيف كتاب في تفسير كتاب الله تعالى لم يغادر فيه حرفًا من أقاويل المفسرين وتآويل المتأولين ونكت المذكرين ، واتبع ذلك بوجوه القراءات وعلل النحو والتصريف وعلامات التذكير والتأنيث ، ووشحها بما رواه الثقات الاثبات من الحديث . وبلغني أنه انفق عليهم مدة اشتغالهم بمعونته على جمعه وتصنيفه عشرين الف دينار ونسخته بنيسابور موجودة في مدرسة الصابونية لكنها تستغرق عمر الكاتب وتستنفد صبر الناسخ الا ان يتقاسمها النساخ بالخطوط المختلفة .

قال شارح التاريخ المذكور الفاضل الكرماني : تفسير خلف مشهور مذكور وهو مائة مجلد وبعض مجلداته نقل الى خزانة الكتب بالمسجد المنيعي من مدرسة الصابوني بعد خرابها وهي الآن فيها فلله من ملك يعتني بأمر العلم دون من العلم ما يبقى له تذكرة على وجه الأيام .

ومن المؤلفين الأول المكثرين من التأليف هشام الكلبي العالم بالنسب واخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها المتوفى سنة ٢٠٦ وكتبه تزيد على مئة وخمسين . ومنهم المدائني المتوفى سنة ٢١٥ جاءت أسماء كتبه في نحو اربع صفحات . ومنهم المرزباني من أهل القرن الرابع قال ان تآليفه بلغت ألوفًا من الاوراق . ومن الفقهاء والحفاظ المكثرين من التأليف محمد بن ادريس الشافعي ، وداود بن خلف الاصفهاني ، وابو العباس بن سريج المعروف بالباز الاشهب من ائمة الشافعية ، كانت فهرست كتبه تشتمل

على أربعمائة مصنف ، وقيل ان تصانيف الحافظ أبي بكر ابن البيهقي تبلغ الف جزء . ولأبي بكر ابن الخطيب صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣ قريب من مئة مصنف وهو من المجيدين على اكثارهم . وللنسفي من كتب الاصول والفقه والحديث والأدب والتاريخ ما يقرب من مئة مصنف . وكان ابن سبعين ممن صنف تصانيف كثيرة . وللأشعري خمسة وخمسون تصنيفاً وهو بالقليل الذي انتهى الينا من كتبه يعد في رأس المصنفين والمفكرين .

وكان ابو حاتم البستي من أوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ قال ياقوت : وكانت الرحلة بخراسان الى مصنفاته وروى عن ابن ثابت ان من الكتب التي تكثر منافعها ان كانت على قدر ما ترجمها واصفها مصنفات ابي حاتم محمد بن حِبان البستي التي ذكرها لي مسعود بن ناصر الشجري ووقفني على تذكرة باسمائها ولم يقدر لي الوصول الى النظر فيها لأنها غير موجودة بيننا ولا معروفة عندنا وانا اذكر منها ما استحسنت سوى ما عدلت عنه واطرحته . وهنا عدها فجاءت زهاء مائتين وخمسين جزءاً والنموذج الذي انتهى الينا منها يعد غاية الكمال في التفكير الجيد والاحاطة العظيمة بأطراف الموضوع . وبلغت مصنفات ابي بكر بن فورك المتكلم الاصولي الاديب النحوي الواعظ قريباً من مائة مصنف .

ولأبي الحسين الراوندي صاحب المقالة المشهورة في علم الكلام ، وهو الذي ينسب اليه اليوم ظلماً كل كلام فيه سفسطة ومغالطة وكفر ، من التآليف نحو مائة واربعة عشر كتاباً مع انه لم يتجاوز الاربعين من عمره .

ولمحيي الدين بن عربي تآليف كثيرة ذكر في اجازة كتبها للملك المعظم أنه اجازه ان يروي عنه مصنفاته ومن جملتها كذا وكذا حتى عدّ نيفاً واربعمائة مصنف ، والف رسالة عدد فيها كتبه كما جرت عادة بعض المؤلفين ان يترجموا انفسهم ويذكروا مؤلفاتهم في رسائل خاصة مخافة ان يدس عليهم بعضهم ما لا يروقهم ويقول فيهم ما ليس فيهم .

وابن سعيد الأندلسي المؤرخ من المكثرين من التأليف ومنها الموضوعان الغريبان

المتعددا الاسفار وهما المغرب في حلي المغرب والمشرق في حلي المشرق وغير ذلك قال لسان الدين حدثني الوزير ابو بكر بن الحكيم انه خلف كتاباً يسمى المرزمة يشتمل على وقر بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية والاخبارية الا الله تعالى ·

ومن المكثرين من التأليف لسان الدين بن الخطيب وابو العلاء المعري ولهذا كتاب سماه الأيك والغصون وهو المعروف بالهمزة والردف يقارب المئة جزء في الأدب قال ابن خلكان : وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب الهمزة والردف قال لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد · ومن المكثرين القاضي الفاضل قال ابن خلكان : اخبرني أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة امره ان مسودات رسائله في المجلدات والتعليقات في الاوراق اذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد · وكان الحاجب المنصور ابو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة المدعو بالافطس أديبًا جليلاً ومن تآليفه الكتاب المظفري المسمى بالتذكرة في خمسين مجلداً · وكتب عبد اللطيف البغدادي الفيلسوف نحو مئة وخمسين كتاباً وذلك في سياحات له طويلة دامت نحو اربعين سنة في العراق والشام ومصر والروم وليس لنا منها اليوم سوى أوراق قليلة وكلها ممتعة ·

ومن المكثرين من التأليف والمتوسعين فيه احمد بن ابان بن السيد اللغوي الاندلسي يعرف بصاحب الشرطة ، وهو مصنف كتاب العالم في اللغة نحوَ مئة مجلد مرتب على الاجناس بدأ بالفلك وختم بالذرة وله في العربية واللغة كتب أخرى · ومثله ابن سيدة الضرير صاحب المخصص والمحكم وغيرهما وهو من المكثرين من التأليف والحفظ المبرزين في تآليفهم وكتابه المخصص آية في بابه ·

ومن المكثرين ابو اسحق ابراهيم بن الاعلم البطليوسي له نحو خمسين تأليفًا · وبلغت تآليف محمد ابي طالب القرطبي المتوفى سنة ٤٣٧ — ٧٧ تأليفًا والف عيسى ابن عمر النحوي نيفًا وسبعين مصنفًا في النحو قال سيبويه : جمعها بعض اهل اليسار وأتت عنده عليها آفة فذهبت ولم يبق في الوجود سوى كتابين ·

ومن المكثرين من التأليف عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى سنة ٢٣٨ قال المقري رأيت في بعض التواريخ ان تواليفه بلغت الفاً ومن اشهرها كتاب الواضحة في مذهب مالك . ولأبي عمرو الداني القرطبي من علماء القرآن مئة وعشرون مصنفاً . وكان يقول : ما رأيت شيئاً قط الا كتبته ولا كتبته الا حفظته ولا حفظته فنسيته ، طبع علماء المشرقيات بعض ما عثروا عليه من تآليفه فرأينا فيها عجباً من ابداعه . وآخر من له التآليف الكثيرة من ائمة الأندلس ابو الحسن القلصادي المتوفى سنة ٨٩١ واكثر تصانيفه في الحساب والفرائض .

وممن عرفوا بسعة التأليف احمد بن ابي عبد الله من الامامية فان ما كتبه بلغ مائة تصنيف . ومن فقهاء الامامية ابو النصر العياشي ذكر ابن النديم اسماء كتبه في نحو صفحتين . ومنهم الاسكافي بلغت تآليفه سبعين كتاباً وكلها جيد مفيد .

ويقال ان تواليف ابي جعفر بن النحاس تزيد على خمسين منها شرح عشرة دواوين للعرب وذكروا ان محمد بن جماعة من أهل القرن الثامن كان اعجوبة زمانه في العلم وليس له في التأليف حظ مع كثرة مؤلفاته التي جاوزت الألف فان له على كل كتاب اقرأه التأليف والتأليفين والثلاثة واكثرها من شرح مطول ومتوسط ومختصر وحواش ونكت الى غير ذلك وكان يعرف علوماً عديدة منها الفقه والتفسير والحديث والاصلان والجدل والخلاف والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق والهيئة والحكمة والزيج والطب والفروسية والرمح والنشاب والدبوس والثقاف والرمل وصناعة النفط والكيمياء وفنون أخر وعنه انه قال : اعرف ثلاثين علماً لا يعرف اهل عصري اسماءها .

ومن الذين اكثروا من التأليف احمد بن مكتوم من اهل القرن الثامن وعبد الرحمن الانباري من أهل القرن السادس وعيسى اللخمي الاسكندراني من أهل القرن السادس وتقي الدين السبكي من أهل القرن الثامن وله مئة وخمسون تصنيفاً والجلال السيوطي من اهل القرن العاشر اطلعنا على فهرست كتبه في سبع ورقات

وربما لا تقل عن اربعمائة مجلد وفيها الجيد ، واتهم بأنه سلخ او مسخ بعض المؤلفات وادعاها • ومنهم الصلاح الصفدي والمقريزي وابن فضل الله وابن المكرم صاحب اللسان وكلهم من المكثرين من التصنيف والذين بلغوا غاية في الاجادة • ومنهم علي ابن زيد البيهقي من أهل القرن السادس ألف نحو ثمانين كتاباً بالعربية والفارسية •

وأعجوبة المؤلفين ابو موسى جابر بن حيان قال : الفت ثلثمائة كتاب في الفلسفة وألفاً وثلثمائة كتاب في الحيل على مثال كتاب نقاطر (؟) والفاً وثلثمائة رسالة في صنائع مجموعة وآلات الحرب ، ثم الفت في الطب كتاباً عظيماً والفت كتباً صغاراً وكباراً ، والفت في الطب نحو خمسمائة كتاب الى ان قال : ثم الفت كتبًا في الزهد والمواعظ والفت كتبًا في العزائم كثيرة حسنة ، والفت كتبًا في النيرنجيات ، والفت في الاشياء التي يعمل بخواصها كتبًا كثيرة ، ثم الفت بعد ذلك خمسمائة كتاب نقداً على الفلاسفة ثم الفت كتاباً في الصنعة (الكيمياء) يعرف بكتب الملك وكتاباً يعرف بالرياض •

* * *

التآليف في الأمم كالأشخاص منها العاطل والجيد والاجود ، والعاطل يقضى عليه ولا يبقى لأنه ساقط بطبعه ، والجيد قد يدوم لفائدة قليلة فيه ، اما الاجود فباق بقاء الأيام ، وكلما ذكر اسم صاحبه حلا في الأفواه وتطلعت نحوه العيون • كان المجودون من المؤلفين في القرون الأولى للاسلام اكثر من المجودين في القرون الاخيرة ، لأن العلوم كانت أرقى والملوك يحرصون عليها ويأخذون بأيدي أهلها والأمة تبع لملوكها في باب العناية بها وبأهلها •

وانا اذا قلبنا صفحات التاريخ ، نجد في كل عصر العشرين والثلاثين من الرجال المبرزين ، وهؤلاء يجب أن يشاد بذكرهم كل حين • فمنهم ابو بكر بن مجاهد العارف بالقراآت وعلوم القرآن وهو آخر من انتهت اليه الرئاسة بمدينة السلام (توفي سنة ٣٢٤) ومنهم الخليل بن احمد (١٧٠) وهو أول من استخرج العروض وغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس •ومنهم صاحبه سيبويه قال ابن النديم وعمل كتابه الذي

لم يسبقه الى مثله أحد قبله ولم يلحق به بعده · قرأت بخط أبي العباس ثعلب اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان واربعون انساناً منهم سيبويه والاصول والمسائل للخليل · ومنهم ابو عبيدة (٢١٠) والاصمعي (٢١٠) وابوحاتم السجستاني (٢٥٥) والمبرد (٢٧٩) والزجاج (٣١٠)ومنهم ابن دريد (٣٢١) وابو سعيد السيرافي (٣٦٨) وابو الحسن الرماني وابو علي الفارسي (٣٧٠) والكسائي(١٩٧) والفراء (٢٠٧) والمفضل الضبي وابن الاعرابي (٣٣١) وابو عبيد القاسم بن سلام · وابن السكيت (٢٤٦) وابن قتيبة قال صاحب الفهرست انه كثير التصنيف والتأليف وكتبه في الجبل مرغوب فيها · وابو حنيفة الدينوري وابن خالويه ٣٧٠ وابن جني ٣٩٢ وابن اسحق صاحب السيرة قال ابن النديم وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتبه اهل العلم الأول (١٥٠) وهشام الكلبي قال اسحق الموصلي : كنت اذا رأيت ثلاثة يرون ثلاثة يذوبون علويه اذا رأى مخارقاً وابا نواس اذا رأى ابا العتاهية والزهري اذا رأى هشاماً (٢٠٦) والواقدي وهو الذي خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتباً كل قمطر منها حمل رجلين وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار وقبل ذلك بيع له كتب بألفي دينار (٢٠٧) والمدائني (٢٢٥) والبلاذري صاحب كتاب البلدان واحد النقلة من الفارسي وابو الفرج الأصفهاني (٣٦٠) وعبد الله بن المقفع ·

قال ابن النديم الكتب المجمع على جودتها عهد ازدشير وكليلةودمنة ورسالة عمارة ابن حمزة الماهانية واليتيمة لابن المقفع ورسالة الحسن لأحمد بن يوسف الكاتب وسهل ابن هرون وكان ابو عثمان الجاحظ يفضله ويصف براعته وفصاحته · وقدامة بن جعفر والمرزباني (٣٧٨) والصابي وابو زيد البلخي كان فاضلاً في العلوم القديمة والحديثة تلا في تصنيفاته وتأليفاته طريقة الفلاسفة الا انه بأهل الأدب أشبه · واسحق الموصلي وبشار بن برد وابو نواس وابن الرومي والبحتري ومالك ابن أنس والشافعي وابوحنيفة وابن حنبل وابو يوسف والمزني وداود بن علي وابو عبد الله البخاري وابن جرير الطبري ويحيى النحوي ومتى بن يونس ويحيى بن عدي وابن زرعة وبنو موسى بن شاكر وثابت ابن قرة وابراهيم بن سنان وعمر بن الفرخان ومحمد بن موسى الخوارزمي قال ابن النديم

وكان منقطعاً الى خزانة الحكمة للمأمون وهو من اصحاب علوم الهيئة وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجيه الاول والثاني ويعرفان بالسند هند · وبنو الصباح محمد وابراهيم والحسن قال في الفهرست والجميع من حذاق المنجمين بعلوم الهيئة والاحكام والبتاني صاحب الزيج وحنين بن اسحق العبادي ، وقسطا بن لوقا البعلبكي ويوحنا بن ماسويه واسحق بن حنين وجابر بن حيان ·

ومنهم ابن وحشية وابن السيد البطليوسي قال ابن خلكان وهو مجيد في كل ماصنفه وكمال الدين بن يونس (٦٣٩) قال ابن خلكان تبحر في جميع الفنون وجمع من العلوم مالم يجمعه أحد وتفرد بعلم الرياضة وكان أهل الذمة يقرؤون عليه التوراة والانجيل وشرح لهم هذين الكتابين شرحاً يعترفون انهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله وكان في كل فن من الفنون كأنه لا يعرف سواه لقوته فيه · واحمد بن الطيب السرخسي كان متفنناً في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب حسن المعرفة جيد القريحة بليغ اللسان مليح التصنيف والتأليف (٢٨٦) وثابت بن قرة لم يكن في زمانه من يماثله في صناعة الطب ولا في غيره من جميع اجزاء الفلسفة وله تصانيف مشهورة بالجودة وكذلك جاء جماعة كثيرة من ذريته ومنهم ابو سعيد ابنه سنان وابو الحسن ثابت بن سنان · وابو علي بن زرعة وعلي بن العباس المجوسي مصنف كتاب الملكي في الطب وابو الفرج بن الطيب وابو الحسن بن بطلان وابن الشبل البغدادي وابن رضوان وسعيد بن هبة الله وابن جزلة وامين الدولة بن التلميذ والبديع الاسطرلابي وابو الخير الحسن بن سوار وابو الفرج ابن هندو والرئيس ابن سينا وابو الفرج بن الطيب احيا من علوم الحكمة والمنطق مادثر وابان منها ما خفي وقد تلمذ له جماعة سادوا وأفادوا منهم المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان · قال ابن بطلان : ان شيخنا ابا الفرج بن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير مابعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كاد يلفظ نفسه فيها وهذا يدلك على شدة حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه · ولعلهم لقبوه بالمفسر لاستغراقه في تفسير ما بعد الطبيعة ·

وفخر الدين الرازي وابن جلجل والغافقي الاندلسي قال ابن ابي أصيبعة وكتابه في الأدوية المفردة لا نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه · وامية بن الصلت

وابن باجة وابو العلاء بن زهر وابن رشد وابن الرومية والمبشر بن فاتك وله تصانيف جليلة في المنطق وغيره من اجزاء الحكمة وهي مشهورة فيما بين الحكماء · والخطيب التبريزي والقطب الشيرازي والامام القزويني والجوهري وابن الحاجب ونصير الدين الطوسي وابن دقيق العيد وسيف الدين الآمدي والبيضاوي وابن البيطار وهؤلاء الثلاثة خلدوا بما صنفوا وأجادوا وأفادوا · وابن محلي الموصلي وابن فلوس الماردبني وابن مسكويه والمسعودي وابن خلدون وابن الاثير وابو الفدا وهؤلاء الخمسة اكبر الدعائم في تاريخ العرب كتبت لهم الاجادة التي ليس بعدها اجادة · وافضل الدين الخونجي قال ابو الفرج بن العبري وفي هذا الزمان اي في النصف الأول من القرن السابع كان جماعة من تلامذة الامام فخر الدين الرازي سادات فضلاء أصحاب تصانيف جليلة في المنطق والحكمة كزين الدين الكشي وقطب الدين المصري بخراسان وافضل الدين الخونجي بمصر وشمس الدين الخسروشاهي بدمشق واثير الدين الابهري بالروم وتاج الدين الأرموي وسراج الدين الأرموي بقونية · وعبد المنعم الجلياني وابن الصلاح وموفق الدين ابن المطران وشرف الدين بن الرحبي والصاحب امين الدولة السامري وابن عبد ربه والبديع الهمذاني والحسن بن رشيق القيرواني · وابو هلال العسكري وابن جني وما طبع من كتبهما يأخذ بمجامع القلوب لما حوى من تحقيق وتدقيق ·

وعمل حسان بن مالك بن ابي عبدة الوزير احد ائمة اللغة والآداب ومن اهل بيت جلالة ووزارة مثل كتاب ابي السري سهل بن ابي غالب الذي الف في أيام الرشيد كتاباً سماه بكتاب ربيعة وعقيل قال ابو محمد ابن حزم وهو من اصلح ماالف في هذا المعنى وفيه من اشعاره ثلثمائة بيت وكان سبب تأليفه إياه انه دخل على المنصور ابي عامر محمد بن ابي عامر وبين يديه كتاب ابي السري يعجب به فخرج من عنده وعمل هذا الكتاب وفرغ منه تأليفاً ونسخاً وتصويراً وجاء به في مثل ذلك اليوم من الجمعة الاخرى وأراه اياه فسر به ووصله عليه ·

ومنهم صاعد بن الحسن الربعي وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار . ومنهم الراغب علي بن الحسين الاصبهاني والشريف المرتضى والقاضي الجرجاني وعلي بن عبيدة وابو حيان التوحيدي وابن القفطي والقلقشندي والنويري والحصري وابوعلي الفارمي وابو العلاء المعري وابن العديم والحريري . وابن الصائغ والقاضي ابو الفرج المعافى قال ابن خلكان كان فقيهاً أديباً شاعراً عالماً بكل فن وله عدة تصانيف ممتعة في الأدب وغيره وكتاب الجليس الانيس تصنيفه أيضاً (٣٩٠) وواصل بن عطاء وياقوت الحموي ويحيى بن اكثم وابن السكيت وابن عبد البر وابن ابي الحديد شارح نهج البلاغة . وابن الانباري وعبد القاهر الجرجاني وابو اسحق الاسفرايني قال ابن خلكان اخذ عنه الكلام والاصول عامة شيوخ نيسابور وأقر له بالعلم اهل العراق وخراسان وله التصانيف الجليلة (٤١٨) وابو اسحق الشيرازي قال ابن خلكان انه صنف التصانيف المباركة المفيدة (٤٩٦) وابو حامد الاسفرايني (٤٠٦) وابن زيدون وابو الفضل الميداني (٥١٨) والثعالبي صاحب اليتيمة والقاضي عياض قال ابن خلكان: صنف التصانيف المفيدة قال وبالجملة فكل تواليفه بديعة . والقاضي الباقلاني وابو الحسين البصري له التصانيف الفائقة في أصول الفقه وانتفع الناس بكتبه والحاكم النيسابوري قال ابن خلكان امام اهل الحديث في عصره والمؤلف فيه الكتب التي لم يسبق الى مثلها (٤٠٥) وابن دريد صاحب الجمهرة . وابو بكر الانباري(٣٢٨) والمسبحي (بالباء لا بالياء) صاحب التاريخ المشهور وغيره من المصنفات (٤٢٠) وابو العباس القرطبي انتفع الناس بكتبه واجاد فيها وعيسى بن دينار الاندلسي صاحب كتاب الهداية الذي يقول فيه ابن حزم انه ارفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم واجمعها للمعاني الفقهية ومالك بن علي الفهري صاحب القصي وابو عبد الرحمن بقي بن مخلد صاحب التفسير الذي قال فيه ابن حزم انه الكتاب الذي اقطع قطعاً لا استثني فيه انه لم يؤلف في الاسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره وان تآليفه قواعد الاسلام لا نظير لها .

ومن الاندلسيين أيضاً القاضي منذر بن سعيد وابو محمد قاسم بن اصبغ ومحمد ابن عبد الملك بن أيمن ويوسف بن عبد البر وابو الوليد الفرضي وابن سعيد المؤرخ والقاضي محمد بن لبانة والقاسم بن محمد المعروف بصاحب الوثائق واسماعيل بن القاسم وابن القوطية وابن النياني واحمد بن فرج وابو الحسن الكاتب واحمد بن محمد بن موسى الرازي وحسين بن عاصم واسحق بن سلمة الليثي وابو مروان بن حيان صاحب التاريخ الكبير في أخبار اهل الأندلس نحو عشرة أسفار قال ابن حزم هو أجل كتاب ألف في هذا المعنى وله كتاب المتين في التاريخ وهو في ستين مجلدة ومحمد ابن عاصم . قال ابن حزم وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن اسحق وهي كتب حسان رفيعة وكتب محمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكتاني وهي كتب رفيعة حسان وكتاب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي ولئن قلنا انه لم يؤلف في الطب اجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن . وفي الفلسفة كتب سعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار وابي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي . وفي الأزياج مسلمة وابن السمح واحمد بن نصر ومحمد بن عطية الغرناطي والحميدي والباجي وابن بشكوال وابن بسام صاحب الذخيرة . وابو القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي وعريب بن سعيد القرطبي وابو محمد عبد الله بن ابراهيم الحجاري صاحب كتاب المسهب في فضائل المغرب لم يصنف في الأندلس مثل كتابه . وابو عبد الله بن ابي الخصال الشقوري صاحب مراج الأدب وابن عصفور الاشبيلي النحوي . وابن الطراوة والسهيلي وابن خروف وابو عبيد البكري الاونبي صاحب كتاب معجم ما استعجم والمسالك والممالك . وابو علي الشلوبين وابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان المقدم في علم الفلسفة وابن جبير صاحب الرحلة وابو علي القالي صاحب الأمالي قال الضبي وكانت كتبه على غاية التقييد والضبط والاتقان وقد الف في علمه الذي اختص به (اللغة والأدب) تواليف مشهورة تدل على سعة روايته وكثرة اشرافه وقالوا لئن كان كتاب ابي العباس المبرد (اي

الكامل) اكثر نحواً وخبراً فان كتاب ابي علي (النوادر) اكثر لغة وشعراً ومن كتبه في اللغة البارع كاد يحتوي على لغة العرب وكتابه في المقصور والممدود والمهموز لم يؤلف في بابه مثله وتوفي سنة ٣٥٦

هذا ما أمكن جمعه من أسماء المؤلفين من العرب والمجودين فيه وما ذكرناه نموذج يتيسر التوسع فيه فيكون منه جزء مهم يقرأ دليلاً على سعة فضل العرب وبعد نظرهم في خدمة الدين والدنيا ٠



مخطوطات ومطبوعات

كتاب الذخيرة فى علم الطب

تأليف

ثابت بن قرة

هو ابو الحسن ثابت بن قرة الحراني المولود يوم الخميس في ٢١ صفر سنة ٢١١ هجرية الموافقـة للسنة ٨٢٥ مسيحية والمتوفى سنة ٢٨٨ هجرية الموافقة للسنة ٩٠٠ مسيحية عن سبعة وسبعين عاماً في زمن الخليفة العباسي الموفق بالله ٠ وكان طبيباً شهيراً من أعاظم أطباء العصر العباسي كثير التصنيف والتأليف فوضع من الكتب الطبية ما يزيد عن الخمسة والثلاثين مجلداً ٠ وكان فيلسوفاً كبيراً من اعظم فلاسفة عصره ورياضياً بارعاً وفلكياً قديراً وله في الفلك والرياضيات عدد من المخطوطات التي لا تزال محفوظة في المكتبة الاهلية بمصر ٠ وكان يحسن اللغة السريانية وسواها من اللغات الشائعة في عصره فترجم منها شيئاً كثيراً الى اللغة العربية ٠ وروى ابن أبي أصيبعة عنه في كتاب طبقات الأطباء انه وعى في صدره شتى العلوم فألف في الفلك والدين واللغات والموسيقى وغير ذلك ٠

وكان من صابئة حران حيث اشتغل في اول عهده جابياً للضرائب ٠ ثم انه صحب محمد بن موسى حين ترك بلاد الروم فرآه وافر الذكاء وقدمه الى جماعة المنجمين الذين كان جلهم من الصابئين في بغداد مدينة السلام ٠ وتروى عنه حكايات كثيرة وردت جميعها مفصلة في كتاب طبقات الأطباء لابن ابي أصيبعة ٠ وكان من أخص تلامذته عيسى بن اصيد المسيحي فلازم هذا أستاذه ونقل باشرافه عدداً من الكتب السريانية الى اللغة العربية ٠

وكتاب الذخيرة ألفه ثابت بن قرة لولده سنان الذي كان طبيباً عالماً نظير أبيه ٠ وذكر ابن القفطي في كتابه تاريخ الحكماء ما نصه « وفي ايدي الناس

كناش عربي جيد يعرف بالذخيرة » وقال عنه ابن ابي أصيبعة « كناشه المعروف بالذخيرة ألفه لولده سنان بن ثابت » . ويبدأ الكتاب بهذه العبارة : هذا كتاب الذخيرة الذي يشتمل على ما يحتاج اليه من علم الطب في وصف الداء والدواء على اوجز ما يتهيأ ان يكون تجربة امام زمانه (ثابت بن قرة) في العلوم الطبيعية جمعه أيام حياته (لابنه سنان بن ثابت بن قرة) وهو واحد وثلاثون باباً .

والكتاب الذي بين يدينا طبع في مصر ونشره الدكتور ج . صبحي أحد أساتذة الجامعة المصرية نقلاً عن مخطوطته الاصلية بمناسبة الاحتفال المئوي لمستشفى قصر العيني في القاهرة وقد صدره بمقدمة باللغة الانكليزية ليستطيع الأطباء الانكليز ممن حضروا الاحتفال المذكور الاطلاع على موضوع الكتاب والوقوف على اساليب المداواة التي كانت شائعة عند العرب . ثم ان الناشر اتبع المقدمة بمعجم عربي انكليزي حوى جميع ما ورد في الكتاب من الألفاظ الطبية وأسماء العقاقير فسهل مطالعته على الأطباء العرب والمستشرقين . وذكر الناشر ان وضع هذا المعجم كان على جانب عظيم من الصعوبة لأسباب منها ان العدد الكبير من اسماء الأمراض والنباتات الواردة في الكتاب معرب من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية وان تحقيق اللفظة الواحدة كان يتطلب في كثير من الأحيان مراجعة عدد كبير من المؤلفات . وأعلن الناشر انه تمكن من الحصول على مخطوطة الكتاب من خزانة كتب المغفور له كيرلس الثامن بطريرك الاقباط وان هذه المخطوطة ذات شأن كبير لأنها الفريدة الباقية . ولأنها لم تنشر قبلاً باللغة العربية ولم تترجم الى احدى اللغات الأجنبية .

وأورد الناشر في مقدمته لمحة موجزة عن تاريخ الطب العربي فذكر ان العرب نقلوا جله عن اليونانيين وأضافوا اليه بعد ذلك شيئًا يسيراً مما اخذوه عن الفرس والمصريين وانهم وان لم يزيدوا من عندهم شيئًا مما اقتبسوه من الأمم الأخرى فلهم الفضل في أنهم تمكنوا من الاحتفاظ بالتراث القديم فصانوه من الضياع . وهم

الذين تناولوا من يد اليونانيين مشعل الطب الذي أخذ بالانطفاء فلم تخمد ناره في أيديهم بل صانوه طيلة خمسة قرون ثم سلموه الى من جاء بعدهم وهو اشدُّ اشتعالاً وتألقاً ٠

وعقبت الفتوحات العربية في القرن السابع نهضة فكرية عجيبة بلغت اوجها في القرنين الثامن والتاسع حين امتدت الدولة العربية من الدجلة الى ضفاف الوادي الكبير في الأندلس وأولع الخلفاء باقتناء المخطوطات النفيسة القديمة فكانوا يبذلون كل مافي وسعهم للحصول عليها لنقلها الى العربية ، حتى ان احد الفاتحين منهم حين املائه شروط الصلح على خصمه الامبراطور البيزنطي طلب ان يكون من حقه جمع المخطوطات اليونانية ٠

ثم ان الناشر يحاول ان يثبت ان اليونانيين نقلوا الطب عن العلوم المصرية حتى ان بعض الروايات تشير الى ان جالينوس تلقى علومه في مصر ٠ على ان الأقدار شاءت ان لا يصل الينا من العلوم المصرية الا النزر اليسير ولو ان ما بلغنا منها كافٍ اذن لكان تاريخ الطب القديم غير ما هو عليه ولكنا نجد بين صفحاته من أسماء الأطباء المصريين القدماء غير اسم جالينوس وابقراط اليونانيين ٠ واذا كانت مصر الحديثة تأخذ علومها عن اوربة فان هذه ترد اليها الآن ما اقتبسته منها في الازمنة الخالية حين كان العلم مستقراً في هليوبوليس والاسكندرية ٠

وقسم ثابت بن قرة كتابه واحداً وثلاثين باباً بعض منها يتناول حفظ الصحة ولا يزيد عن اربعة ابواب والباقي يبحث في ما كان معروفاً من الأمراض الباطنة والظاهرة والجراحية وهي مرتبة بحسب اسبابها او بحسب الأعضاء التي تصيبها ٠ ويلي كل مرض كيفية معالجته وفقاً للنظريات الشائعة في ذلك الحين ، والوصفات الطبية المستعملة في مداواته ومعظم هذه الوصفات مأخوذ عن جالينوس ٠ والقليل منها عن ابقراط او سواه من قدماء المؤلفين ٠

ويذكر المؤلف في بعض المواضع نتائج تجاربه ومشاهداته الخاصة ٠ وفي الجملة

فان كتاب الذخيرة مؤلف طبي كتب للطبيب الممارس ليكون مرجعاً له في اعماله اليومية وهو مبني على النظريات الطبية اليونانية وتسيطر عليه نظرية الاخلاط والارجح ان هذه النظرية وضعت في مدرسة الاسكندرية ثم تبناها جالينوس ونقلها عنه اطباء السريان الذين نقلوها بدورهم الى اطباء العرب ٠

وخلاصة هذه الفكرة كما كانت تفهمها العرب ان الجسد مركب من الجواهر الأربعة وهي الأرض والنار والماء والهواء ونسبها فيه مختلفة ٠ والادوية مركبة من هذه الجواهر الاربعة ذاتها وتكتسب منها العناصر الاربعة البرد والحر والرطوبة واليبس ٠ ومن النادر ان تتوازن الجواهر الاربعة في الجسد ليحافظ على اعتداله بل ان احدها او اثنين منها يتغلبان فيصبح بارداً او رطباً او يابساً او حاراً ، او انه قد يكون في الوقت ذاته يابساً وحاراً او رطباً وحاراً ٠ وقد لا تتساوى درجات هذه الصفات في الجسد فيصبح الشخص خليطاً لاتحادها فيه بدرجات متفاوتة او ان يتغلب فيه العنصر الواحد على سائر العناصر ٠ وهكذا الحال في الأدوية فالمسك حار ولكنه اقل من الثوم والخردل ، والخبازى باردة ولكنها أقل من النيلوفر ٠ ولكل من الحر والبرد والرطوبة واليبس اربع درجات ولكل من هذه الدرجات المختلفة طائفة من الأدوية ٠ فيقال ان كذا او كذا دواء حار في بدء الدرجة الثانية او يابس في نهاية الدرجة الثالثة وقس عليه ٠ فالصفات العامة للأدوية تتألف اذن من اجتماع طبائعها الأولية ٠ وفضلاً عن ذلك فللأدوية بعض الطبائع الخاصة ٠ ثم ان أسباب الأمراض تستنتج أيضاً من هذه العقيدة العنصرية فيكون سببها الحر او البرد او الرطوبة او اليبس فتداوى بالأدوية ذات الطبائع المعاكسة ٠

ومع ان ثابت بن قرة عاش في القرن التاسع فان المخطوطة التي نقل عنها الناشر مكتوبة في السنة ١٢١٠ بعد المسيح اي بعد وفاة المؤلف بثلاثمائة وعشر سنين وهي تنتهي بهذه العبارة «تم كتاب الذخيرة بحمد الله ومنه والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه الاكرمين وقع الفراغ من نسخه يوم السبت سابع جمادى الأولى سنة سبع وستمائة» انتهى .

مرشد خاطر

المختار

أحب الدكتور طه حسين بك في تقديمه الجزء الثاني من كتاب «المختار» ان يجعل بين الشيخ عبد العزيز البشري وبين صاحب الأغاني نسباً في اللغة، اما انا فاني أحب ان أذهب مذهباً أبعد، اني أحب ان أجعل هذا النسب بين صاحب «المختار» وبين الجاحظ نفسه، فالشيخ عبد العزيز البشري قد انسحب على أذيال الجاحظ في بعض فنه، فان له تصرفاً في مفردات اللغة غير يسير، ولقد زاد في محاسن تصرفه صفاء ذوقه، واذا شئت ان أجمل الرأي في فن الشيخ عبد العزيز البشري فلا أجد عبارة أصح من عبارته في الشيخ سيد درويش، فهو يقول فيه: وللرجل أذن موسيقية، وله حس مرهف، وفيه ذوق تام دقيق.

ولئن صدقت هذه الصفات في الشيخ سيد درويش فانها في الشيخ عبد العزيز البشري أصدق، ولعل هذه الأذن الموسيقية هي التي مكنت صاحب «المختار» من إرسال ما أرسله من الكلام في فريق من رجال الموسيقى، الذين حضر مجالسهم، حتى استطاع ان يذوق محاسنهم، وان ينبه على مقابحهم، وان يذهب في الاشارة الى ترديدهم وترنيمهم، والى ترجيعهم وتنغيمهم هذا المذهب الذي ذهبه، وما أظن ان قلماً من الأقلام في هذا العصر يستطيع أن يجري في وصف رقيق الاصوات وأجشها، أو في وصف فنون النغم بمجامعها مجرى قلم الشيخ عبد العزيز البشري.

ولا ريب في أن هذه الأذن الموسيقية التي خلقها الله لشيخنا البشري هي التي أعانته على تهذيب ذوقه اللغوي، واذا جعلت بينه وبين الجاحظ نسباً في اللغة فاني لا أرمي الكلام على عواهنه فان له مقاطع في كلامه على الشيخ علي يوسف او على الشيخ سيد درويش، او في مواطن غير هذه المواطن، تظهر عليها آثار بلاغة الجاحظ.

واذا كان الشيخ عبد العزيز البشري نسيج وحده في شيء، فانه نسيج وحده في تصوير الرجال، فقد أعطاه الله كثيراً من خصائص التصوير، فلا يكاد يتعاظمه

شيء من الكلام على هيآت المصورين ، وعلى عقولهم وعلى قلوبهم ، وله في هذا الباب لهجة خاصة تباغت القارئ فتسليه وتسره ، وهذه اللهجة انما هي سر الصنعة في التصوير فلا يكاد يتفلت منه لفظ في هذا المجال ، ولو انصرف الشيخ عبد العزيز البشري ، وقد اختصه الله بما اختصه به من دقة البيان وطبعه على مثل ماطبعه عليه من التهكم ، الى مراقبة أخلاق أهل عصره ، على نحو مافعله الكاتب الفرنسي « لابروير » : في القرن السابع عشر ، ودوّن نتائج هذه المراقبة في كتاب منفرد ، غير كتابه : في المرآة ، من دون أن يشتت رأيه في طائفة من الرجال لما ذهب أثر كتابه سجيس الليالي !

ولقد حملته مقدرته في بيانه على التجوز في بعض الأحيان في أمر من أمور النحو أو اللغة وهذا شأن كثير من أكابر الكتاب ، فانهم يتجوزون في طائفة من مواضع بيانهم في مذاهب النحو واللغة اعتقاداً منهم ان هذا التجوز تغطي عليه حسناتهم .

فهل يضر شيخنا الجليل ان يقول في بعض كلامه : قد لا يكون ... وهو يعلم العلم كله ان « قد » هذه متصلة بالفعل المتصرف ، الخبري ، المثبت ، المجرد من ناصب وجازم وحرف تنفيس ، لا يفصل بينها وبينه فاصل ، اللهم الا القسم .

وهل يضر شيخنا الجليل ان يدخل : مهما ، على الفعل الماضي ، فيقول : مهما كان ، ومهما استحدث ... وهو يعلم العلم كله ان « مهما » من الجوازم ، ويحيط الاحاطة كلها بمعانيها الثلاثة : مهما تأتنا به من آية .. على ان البحتري أغضى قديماً على دخول « مهما » الفعل الماضي ، ولم يذهب هذا الإغضاء بسحر شعره !

أم هل يضره ان يأتي بالتوكيد المعنوي قبل المؤكد ، فيقول في بعض كلامه : في نفس اليوم ، بدلاً من ان يقول : في اليوم نفسه ، وهو يعلم العلم كله ان التوكيد المعنوي يأتي بعد المؤكد !

ام هل يضره ان يستعمل فعلاً يتعدّى بالحرف ، فيستغني عن هذا الحرف ، فيقول : ثم نقبل على صيغه ، نفتشها وتفرُّها ، وهو يعلم انه يقال : فرّ الدابة ، كشف عن أسنانها لينظر ما سنها ، وفرّ عن الأمر ، بحث عنه .

ان هذا كله لا يذهب بحسنات الشيخ عبد العزيز البشري ، فله أن يجمع صديقاً على صدقان اذا شاء ، وله أن يستغني عن جمعها على أصدقاء وصدقاء ، وله أن يقول : مضعوف البدن من أضعفه الله و يعدل عن : ضعيف البدن ، ان هذا كله صحيح ، وكله فصيح ، غير ان تباعد الشيخ الجليل عن أشباه هذا المألوف من الجمع ، واسرافه في تنخله بعض ألفاظه ، مثل قوله : زلت له هذه الخلة ، بدلاً من قوله : جاءته . يقحمانه في الذي نسميه التنطع في الكلام وقد نزهه الله عن كل تنطع وتنطس .

على اني ارجو ان اكون قد أخطأت في هذه النظرات العجيلة ، فان الشيخ عبد العزيز البشري يغرف في البلاغة من بحر لا تكدره امثال هذه المكدرات .

شفيق جبري



كتاب السلوك
لمعرفة دول الملوك

طبع في القاهرة بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩

قيل ان المؤرخ الكبير تقي الدين احمد بن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ ﻫ مؤلف هذا الكتاب قد زادت تصانيفه على مئتي مجلد كبار . ومهما كان هذا العدد مبالغاً فيه فالمقريزي بلا جدال من المكثرين من التأليف والمجودين فيه . وقد طبع بضعة منها حتى الآن وأهمها « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهو السفر الذي اصبح اكبر مرجع لكل من يريد البحث في عمران مصر وتاريخها منذ القديم الى عصر المؤلف . ومما طبع له « التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم » (ليدن) « ذكر ما ورد في بني أمية وبني العباس (فينا) « الدرر المضية في تاريخ الدولة الاسلامية » (كمبردج) النقود الاسلامية (الاستانة) « اتعاظ الحنفا

بأخبار الخلفا » (القدس) وطبع في مصر « البيان والاعراب عما في ارض مصر من الأعراب » « الأوزان والمكاييل الشرقية » « الطريقة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة »

ومما أبقت عليه الايام من كتب المقريزي « كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » وهو تاريخ مفصل لملوك الاكراد الايوبية والسلاطين المماليك التركية والجركسية. وفيه تراجم مختصرة لبعض المشاهير الذين توفوا في كل سنة. وقد كتبه مؤلفه على نظام الحوليات وتنوّق فيه واخذ من المصادر المعتبرة التي يكاد بعضها يكون الآن في حكم المفقود. ولم يحاول ان يربط بين الحوادث فيجعل المتماثلات في ناحية معينة كما فعل ابن خلدون وابن الأثير بل اطلق عنان قلمه في التدوين على السنين والشهور.

ويقع الباحث في هذا السفر الجليل على حوادث مهمة قد لايجدها في الكتب المطبوعة في فن التاريخ العربي، ويقرأ في حوادث الايوبيين والمماليك واخبار ملوكهم وأمرائهم وما تخلل تلك العهود من الوقائع ما يظن نفسه معه امام قصص وروايات سرد فيها الدقيق والجليل من الحوادث بحيث لم يبق قول لمستزيد.

لاجرم ان في نشر السلوك تتميم سلسلة اخبار دولتين حكمتا مصر والشام وما اليهما اعواماً، وكان لها طابعها الخاص وميزاتها واذا أحب المؤرخون بعد الآن التوسع في الكلام على تينك الدولتين فيجدون المواد اللازمة لهم في كتاب السلوك مما كان بعضه مجهولاً.

ويقول الناشر الاستاذ محمد مصطفى زيادة من اساتذة التاريخ في الجامعة المصرية: ان كتاب السلوك على ايجازه احياناً قد حوى من الحقائق والاشارات ما لم تحوه مطولات المعاصرين كابن الأثير وأبي شامة وابن شدّاد وابن واصل وابن أبي الفضائل والنويري وبيبرس المنصوري وابي الفداء، وان المقريزي كتب كتابة مستوفاة وزاد على هؤلاء المؤرخين ما انتقاه من مراجع أخرى. واستخدم الناشر تاريخي ابن واصل وبيبرس المنصوري من المخطوطات للتصحيح في جملة ما استخدمه من التواريخ والمظان

وذكر ان المقريزي انفرد بأشياء لم يسبق أحد اليها ومنها كلام السلطان العادل الأول بشأن وراثة الملك في الدولة الأيوبية (ص ١٥٢) ومنها الاشارة المبهمة الى لفظ «البحرية» (٢٢٣) اذا قرنت الى المماليك، وقد ظنه جميع المؤرخين مشتقاً من بحر النيل وان فرقة المماليك البحرية التي تفرعت عنها دولة المماليك الأولى بمصر قد سميت بذلك الاسم ومنها غير ذلك .

ولاحظنا ان الاستاذ الناشر اعتمد على بعض علماء المشرقيات الذين خدموا كتاب السلوك او نقلوا عنه او نشروا قسماً منه اكثر من اعتماده على الأصول العربية، ويشير في هوامشه المفيدة الى ذلك مكتفياً بالاسم الافرنجي كأن المفروض ان يكون كل من يطالع كتاب السلوك ملماً باللغات الأجنبية، وكان الأولى ان يترجم الاسم العربي كل مرة ويضع بحذائه الاسم الافرنجي .

* * *

صدر القسم الثالث من الجزء الأول من كتاب السلوك هذه السنة وقد صدر القسمان الأولان (في سنة ١٩٣٤ و ١٩٣٦) مطبوعين في مطبعة دار الكتب المصرية وبنفقة لجنة التأليف والترجمة والنشر . وبلغ مجموع صفحات الأقسام الثلاثة مع الفهارس الممتعة ١١٧٨ ص بالحجم الكبير . ولأول نظرة في الكتاب يتبين للقارئ مبلغ عناية ناشره وما عاناه في رد هذه المخطوطة الى الصواب وما رجع اليه من المراجع العربية والافرنجية، وما علقه في أسفل الصفحات شرحاً وبياناً لما ورد في المتن من الغوامض والمشكلات فدلّ بذلك على مبلغ تحقيقه واستحق ثناء الباحثين .

ويقول الاستاذ انه صرف ثماني سنين في احياء هذا الكتاب وتأسف ضمناً أن صده هذا العمل عن التأليف في ابحاث تروقه وتهمه ونحن نقول له ان نشر مثل هذا الكتاب الجليل بمثل هذا التحقيق من الاستاذ زيادة هو تأليف وزيادة . ونرجو ان يطول به العمر ويدوم له التوفيق ليتم الكتاب على مايحب ويحب له كل محب للتاريخ

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

وقد وقعت للصديق الناشر بعض هنات في الاعلام الشامية لاتقدح في كتاب ضخم كهذا اذا عرفنا كيف كان الأصل المنقول عنه من السقم والخلل ، وما خلا كتاب للقدماء حتى الآن من اشياء كثيرة من هذا القبيل ، عدت على ناشره فما قللت مكانة عمله ، والكامل من عدت سقطاته .

من ذلك (ص ٨٤) حَسَبان (هكذا شكلها وقال في الهامش انها بغير ضبط في س) والصحيح انها حُسبان بالضم قال ابو الفداء في تقويم البلدان (طبعة رينو ودي سلان بباريز) والبلقاء احدى كوَر الشَّراة وهي خصبة وقاعدة البلقاء حُسبان بضم الحاء وسكون السين المهملتين وفتح الباء الموحدة ثم الف ونون في الآخر وهي بلدة صغيرة .

(ص ١٧٤) صفية خاتون ابنة العادل شقيقة الكامل — ضيفة خاتون سميت ضيفة لأن أمها ولدتها بينا كانت أمها ضيفة في غير بيتها ، ومدرسة ضيفة خاتون مازالت باقية الى اليوم في الفردوس من ربض حلب . وضيفة خاتون كانت كشجرة الدر من النساء اللاتي حكمن في مصر والشام في الدولتين الأيوبية والمماليك

(ص ٢١٩) ابو المظفر يوسف بن كزوغلو — ابو المظفر يوسف بن قزاوغلو اي ابن البنت اي السبط

ص ٢٣١ تَبنين وهي الصواب وما ورد في الفهرس بتْنين غلط

ص ٣١٣ نهر قزل ايرمك — ايرمق)

ص ٥٣٢ بيزين — اظنها تيزين (بعد الزاي ياء ساكنة ونون) قرية كما قال ياقوت في المعجم من نواحي حلب كانت تعد من أعمال قنسرين وصارت في أيام الرشيد من العواصم مع منبج وغيرها

ص ٥٤٦ جسر يعقوب — جسر بنات يعقوب

ص ٧٣٥ قرية حَرْزما — فسرها الناشر بأنها بليدة بين ماردين ودنيسر من

أعمال الجزيرة والصحيح أنها حَزْرَما بتقديم الزاى ثم راء وهي قرية لا تزال معروفة في أول المرج مرج دمشق على مقربة من أقصى حدود الغوطة الشرقية

ص ٧٦٩ قرية شعرعمر — قرية شفرعم ، وهي قرية بينها وبين عكا بساحل الشام ثلاثة أميال وكانت منزلة صلاح الدين في حروب الافرنج كما قال ياقوت . وفيها تل الميشوح — تل المفشوخ نسبة لنهر المفشوخ شمالي شرقي عكا . وفيها قرية الفرح — قرية الفرج شمالي عكا وهي على مقربة من قرية القديسية . ومنها قرية طبرنية — نرجح أنها الطيرة

ص ٨١٧ جوسية قرية على مسافة ستة فراسخ من حلب — الصحيح من حمص لا من حلب .

ص ٨٧١ فأقامت الأفراح في الأُردوا — تكررت لفظة الأُردوا بهذا الرسم في القسم الثالث وحقيقتها الأُردو اي الجيش بدون الف في آخرها كما وردت في ص ٥٦٩ وقال انها لفظة مغولية معناها المعسكر

ص ٨٧٥ وافليس وبلادها — وابو قبيس وبلادها ، وهو حصن مقابل شيزر ويقال لها اليوم سيجر قرب حماة

وفي الصفحة نفسها — كفردنين — كفردُبين ، حصن بنواحي أنطاكية كما في ياقوت وأقرب الى الوضوح ما أورده ياقوت في مكان آخر وصف به هذه القلعة قال : شقيف دُبين : قلعة صغيرة قرب أنطاكية ودبين ضيعة كالربض لها

ص ٩٠٢ الدرزية او الدروز قال الناشر انهم احدى فئات أهل لبنان وهم منتشرون أيضاً في جبل كسروان المتصل بسلسلة جبل لبنان — نقول ان جبل كسروان داخل في جبال لبنان وهو منها في الصميم والدروز يسكنون فيه قليلاً ويكثرون في الشوف والمتن من عمل لبنان كما ان منهم ألوفاً في اقليم البلان من سفوح جبل الشيخ (جبل الثلج او حرمون) ووادي التيم تيم الله بن ثعلبة (حاصبيا وراشيا) وفي جبل حوران وبعض قرى عكا وقرى حلب وقرى دمشق

ص ٩٣٢ عقبة شجورا — وفي تقويم البلدان الشحورة عقبة بين دمشق والكسوة

ص ٩٢٣ و ٩٢٨ ارواد (جزيرة رودس) والصحيح ان ارواد جزيرة صغيرة تجاه طرابلس وقرب انطرطوس كما يظهر من المتن نفسه اما جزيرة رودس فالغالب انها هي التي رأيتها في بعض المصادر « رود »

ص ٨٧٥ وقراها الرحلية والجبلية — فسر الناشر الرحلية بقوله ولعل المقصود بالقرى الرحلية ما كان منها على طريق القوافل والرحلة . وهو تخريج بعيد والصواب : السهلية والجبلية .

ص ٩٦٨ و ٩٨٧ شقيف تلمنّس وهو حصن قرب معرة النعمان

ص ٩٧٦ وعيدوا واعمالها — وعيذو واعمالها وعيذو قلعة بنواحي حلب

ص ٩٨٧ قسمون — قسطون ، حصن كان بالروج من أعمال حلب

ص ١١٤٩ قصر ام الحاكم — ام الحكيم وهو ببرج الصُفَّر من أرض دمشق

ص ٢٨ ١ باب الفراديس — باب العمرة — الصحيح باب العمارة وهو معروف الى اليوم .

محمد كردعلي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كتاب شرح أسماء العقّار

تأليف الشيخ الرئيس ابي عمران موسى بن عبيد الله الاسرائيلي القرطبي

نشره وصححه وراجعه على النسخة الوحيدة الدكتور ماكس مايرهوف « المجلد الحادي والاربعون من مذكرات المجمع العلمي المصري »

للعلماء العرب والعربية عشرات من كتب مفردات الأدوية ضاع معظمها على تعاقب الأيام والسنين ، وأشهر ما طبع منها مفردات ابن البيطار . ومما ظل مجهولاً الى زمن قريب مفردات الغافقي التي كانت اكبر مصدر نقل عنه ابن البيطار ، ومفردات الشريف الادريسي ، وكتاب شرح اسمــاء العقار لموسى بن عبيد الله المعروف بابن ميمون القرطبي .

وقد عثر الدكتور مايرهوف ، أحد اعضاء المجمع العلمي المصري ، في خزانة جامع أياصوفيا في اسطنبول ، على نسخة من الكتاب الاخير هي حتى اليوم وحيدة في بابها ، فاستنسخها وترجمها الى الفرنسية وحقق موادها الأربع مائة والخمس ، مع مترادفات كثيرة لتلك المواد من عربية وسريانية ويونانية واسبانية وغيرها . ونص على الأسماء العلمية والفرنسية لهذه العقاقير ، وأشار الى الصحائف التي ذكرت فيها في ترجمة كتب ديوسقوريدس وابن سرابيون وابن البيطار ، وتحفة الاحباب في ماهية النبات والأعشاب ، وكشف الرموز في شرح العقاقير والاعشاب لعبد الرزاق الجزائري ، وفي معجم أسماء النبات للدكتور احمد عيسى ، وغيرها من كتب النباتات الطبية القديمة والحديثة .

وذكر المدلولات القديمة والمدلولات الحديثة لأسماء النباتات الواردة في الكتاب ، ورد كثيراً من تلك الأسماء الى أصولها فقال عن بعضها انها من أصل عربي ، وعن أخرى انها من أصل يوناني او فارسي او سنسكريتي او سامي مع ذكر اشباهها في الآرامية والآشورية والعبرية والسريانية . والذين عانوا بحث اسماء هذه العقاقير يدركون الصعوبة في ضبط تلك الأسماء ومدلولاتها .

وقدم الدكتور مايرهوف للكتاب مقدمة بالفرنسية جوّد بها كثيراً ، فبحث عن إجلال العرب لكتب ديوسقوريدس في المفردات الطبية ، وعن جعلها أساساً لأبحاثهم ، وعن اضافتهم عقاقير كثيرة عليها مما كان يجهله اليونانيون . ثم تكلم على أشهر المؤلفين العرب في مفردات الأدوية كابن ماسرجويه والرازي وابن سينا وابن ماسة والبيروني والغافقي وعبد اللطيف البغدادي وابن الصوري وكوهين العطار واسحق بن عمران والادريسي وابن البيطار وغيرهم كثير حتى بلغ داود الأنطاكي من علماء القرن العاشر فعبد الرزاق الجزائري من أطباء القرن الثاني عشر للهجرة . ولم ينس الاشارة الى اصحاب كتب النبات والمعلات وكتب اللغة من غير الاطباء كأبي حنيفة الدينوري والأصمعي والقزويني والنويري وابن سيده والفيروزابادي وغيرهم . وفي الحقيقة لقد جاءت هذه المقدمة التي بلغت ٤٠ صفحة كبيرة تاريخاً موجزاً او صورة جميلة لتاريخ النباتات الطبية عند العرب .

وبعد ان ملأ الناشر ١٣ صفحة في حياة ابن ميمون القرطبي وفي مؤلفاته الطبية ، انتقل الى ذكر النسخة الخطية من كتابه «شرح اسماء العقّار» ثم الى الكتب التي استعان بها في تعيين المدلولات لأسماء العقاقير وفي فحص المترادفات وتثبيتها .

وعندما انتهى من ذلك تناول الأسماء المذكورة واحداً واحداً فملأ في شرحها اكثر من ٢٠٠ صفحة كلها من القطع الكبير ، ثم عقب عليها بفهارس او مسارد عديدة منها واحد بأسماء الأعلام الذين ورد ذكرهم في تضاعيف الكتاب ، وثان في الأسماء اللاتينية اي العلمية للعقاقير ، وثالث في الأسماء الفرنسية ، ورابع في الأسماء الايبرية اي التي كان العرب يسمونها (عجمية الأندلس) ، وخامس في الأسماء اليونانية ، وسادس في الأسماء المصرية القديمة والقبطية ، وسابع في الأسماء الأكدية والآشورية ، وثامن في الأسماء العبرية والآرامية ، وتاسع في الأسماء العربية والمعربة وهو بأحرف لاتينية ، وعاشر في الأسماء البربرية ، وحادي عشر في الأسماء السنسكريتية واللهجات الهندية ، وثاني عشر في الأسماء الفارسية .

أما القسم العربي من كتاب الناشر فقد اشتمل على نص كتاب « شرح أسماء العقار » وعلى فهرس في أسماء العقاقير المذكورة فيه . وطبع الكتاب في مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة ، على ان يكون المجلد ٤١ من المذكرات التي تقدم الى المجمع العلمي المصري ، فتنشر برعاية جلالة الملك فاروق .

ولا شك ان ابراز الكتاب الذي نحن في صدده على هذا الشكل الجميل ، وبهذه الحلة القشيبة ، وشرح مفرداته هذا الشرح العلمي الواسع المضبوط ، لهو دليل على ما لبعض المستشرقين من الأيادي البيض على لغتنا الضادية .

ولا بد لي من لفت نظر الدكتور مايرهوف المحترم الى بعض ملحوظات لاحظتها أثناء مطالعتي لكتابه الثمين وهي :

أولاً : استنكر ورود لفظة العقار مفتوحة العين في معظم المعاجم العربية (ص ٦٢ من المقدمة) ، واوجب ان تكون بالضم . ولا نرى وجهاً لاستنكاره لأن العرب عندما عربوا الألفاظ الاعجمية أياً كانت أصولها ، لم يتقيدوا بعدم مسها بل غيروا بعض حركاتها حتى بعض أحرفها . والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى .

وقد ذكر الدكتور كثيراً منها في تضاعيف كتابه . فيجب اذن قبول هذه الألفاظ على علاتها . أما مالا يجوز اليوم قبوله فهو ما يخالف العلم الحديث في تلك المعاجم . مثاله خلط بعض المواليد ببعض كتعريفهم الأرز والعرعر والصنوبر والسرو الواحد منها بالثاني ، على حين ان كلا منها جنس نباتي مستقل عن الآخر ، وكتعريفهم اللوز بالبندق ، والكرنب بالسلق ، والآس بالرند ، والأوز بالبط الخ . (انظر مقالي في عيوب المعاجم العربية في عدد اكتوبر ١٩٤٠ من المقتطف)

ثانياً . شك الدكتور في لفظة (القرينة) وهي نوع من الجلبان البري (ص ٤٢و٤٣) وظن انها من الكرسنة . قلت انها القُرَيناء لا الكرسنة فقد ورد في المخصص (م ١١ ص ٦٢) : « ومنها الجلبان واحدته جلبانة ويقال للبرية منها القريناء ولا تؤكل لمرارة فيها » وهي على ما أظن احد انواع Lathyrus الكثيرة التي تنبتها الطبيعة في بلادنا وفي الأندلس .

ثالثاً : ورد في القاموس التِقدة والتقدة من اسماء الكزبرة . فلفظة التَقدة اذن ليست خطأ خلافاً لما أشار اليه في حاشية الصفحة ٩١ .

رابعاً : تسمية الجنبة Groseiller بالريباس هو خطأ على ما اعتقد . فالريباس في كتب المفردات هو Rheum ribes ليس غير . وهو معروف تنبته الطبيعة في جبل الشيخ وجبل لبنان . وتجلب اضلاعه فتباع ويصنع منها شراب لذيذ . وقد وصف ابن البيطار الريباس وصفاً لا يدع مجالاً للشك فيه ، مع العلم بأن هذه اللفظة تطلق اليوم في الشام على النبات المذكور كما ألمعت اليه . ولم اعثر على دليل يجوز اطلاق لفظة الريباس على أنواع Groseiller وهي Ribes rubrum و R. nigrum و R. uva crispa فهذه الأنواع الزراعية الثلاثة لا تزرع في بلادنا ولا تنبت برية فيها . ولم يذكرها فورسكال ولا شوينفرت ولا بوست ولا تيبولت ولا احمد ندا . ومنابتها شمالي اوربة كما هو معروف . وعندما راجعت ما كتبته عنها في معجمي المسمى (معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية) الذي لا يزال مخطوطاً وجدت ان اسم الجنس العلمي Ribes ليس من ريباس العربية بل من Ribs

الدنمركية او Risp السويدية ، على ما رجحه دوكندول في كتابه أصول النباتات الزراعية (« ص ٢٢١ من الطبعة الخامسة ») .

ويتضح من ذلك ان لفظة الريباس لم يطلقها العرب على هذه الجنبة . وهي في الاصطلاح الحديث تسمى الكشمش وان تكن هذه اللفظة في المعاجم تدل على عنب لا نوى له .

خامساً : جاءت لفظة الكنكر في القاموس (مادة حرشف) مفتوحة الكافين بينهما نون ساكنة فيجب قبولها كما جاءت سواء اكان أصلها الفارسي بالضم ام بالفتح . وهي تدل على البقل الذي نسميه بعامية الشاميين إنكنار وارضي شوكي Artichaut ومن أسمائه الحرشف البستاني وسقوليموس وقنارة وهما يونانيتان .

سادساً : من أسماء التمر الهندي الصُبّار بالتشديد والحَوْمَر (القاموس)

سابعاً : اعتقد ان Ononis antiquorum هو الشُبارِق المذكور في المخصص . اما تسمية الشاميين له بالشبرِق فسببه اختلاط اللفظتين المتقاربتين على العامة .

ثامناً : وردت لفظة البَهْش بهاء ساكنة في القاموس المحيط وفي غيره . ولم أجدها مفتوحة الهاء . وهذه اللفظة العربية تطلق على نوع او اكثر من أنواع البلوط كما تطلق على المقل مادام رطباً .

تاسعاً : أورد لفظة الشنجار بالفتح على حين ان القاموس قد ضبطها بالكسر

عاشراً : ذكر القاقلة غير مشددة اللام . والصحيح انها بلام مشددة . وهي تطلق على انواع من الهال تنسب الى الأجناس الثلاثة Amomum و Aframomum و Elettaria . وقد ذكرت أهم هذه الأنواع في معجمي المخطوط

أما القاقلّى بألف مقصورة فهي نبات آخر ذكره ، فلا وجه إذن للالتباس بين اللفظتين . وهما مفصولتان في المعاجم .

حادي عشر : ذكر الكبابة Piper cubeba بباء مشددة . وفي القاموس الكبابة كسحابة الخ .

ثاني عشر : اورد لفظة الثلثان بالضم (وهي عنب الثعلب Solanum nigrum) وضبطها الفيروزابادي بقوله الثلثان كالظَرِبان الخ ·

هذا جانب من الملحوظات التي دونتها ولعلي مصيب في ذكرها · ومهما يكن فكتاب الدكتور مايرهوف يعد من خير الأعمال التي يأتيها العلماء المستشرقون في خدمة لغتنا العربية ·

مصطفى الشهابي

كتاب ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة

تأليف الاستاذ سعيد الأفغاني

طبع بالمطبعة الهاشمية بدمشق سنة ١٣٥٩ ه سنة ١٩٤٠ م ص ٣٥٠ ماعدا الفهارس

دلّ ما خلفته القرون ، وغفل عنه الخصوم ، من مصنفات أبي محمد علي بن احمد بن حزم الظاهري أنه كان إماماً عظيماً ، مستقلاً مستدلاً ، مِعنًّا مِفنًّا ، قويّ العارضة ، شديد المعارضة ، بل كان مجدداً لعلوم الاسلام في القرن الخامس ، ولكنه رحمه الله تعالى — على سعة علمه ، وشدّة استحضاره ، وقوة استدلاله ، — كانت « تقع له المسائل المحررة ، والمسائل الواهية » كما قال الحافظ الذهبي ، فقد أخطأ في أول مسألة ذكرها في أول كتابه المحلى الذي قال فيه سلطان العلماء العز بن عبد السلام كلمته المشهورة : « ما رأيت في كتب الاسلام من العلم ، مثل المحلّى لابن حزم ، وكتاب المغني للشيخ موفق الدين » — فجعل كلمة التوحيد دليلاً على موجد الكون وعلى نفي تعدّد الذات والتركيب ، كما تراه في (ص ٤٦٣) وانما يصح هذا في تفسير سورة الإخلاص ، وآيات غيرها لا في كلمة الشهادة ؛ أما معنى كلمة (إله) في لغة العرب وفي بيان القرآن ، فهو المعبود ، ولفظ الجلالة

علم على المعبود بحق ، فبين تعالى في هذه الجملة (لا إله الا الله) انه لا يستحق العبادة ، الا من تفرد بالايجاد والامداد ، وأهل الجاهلية مؤمنون بوجوده معترفون له بهذا التفرد ، فأقام عليهم الحجة بما أقروه من انفراده بالخلق والتدبير ، على ما أنكروه من تخصيصه بالعبادة ، فكيف خفي هذا المعنى على امام أهل الظاهر ؟

أما الكتاب فيدخل في قسمين (الأول) في حياة ابن حزم ، والثاني في مفاضلته بين الصحابة ، وفي الأول الكلام على عصره ، وأصله ونشأته وشبابه ، وطلبه وعمله ومصنفاته ، ومذهبه وأدبه وحبه ، وأخلاقه ومزاجه وحياته بين الناس ، ووفاته ، وهذه الترجمة — بقلم الأستاذ الأفغاني — قد استغرقت (١٥٠) صفحة وأما رسالة المفاضلة — التي هي القسم الثاني — فهي مجردة من كتاب « الفصل » المطبوع المشهور ، ومقابلة على نسخة خطية محفوظة في المكتبة الظاهرية ، وقد أشير الى ما فيها من اختلاف وزيادة ونقص ، وهي تشتمل على ثلاثة أبواب وخاتمة (الأول) في بيان الفضل والمفاضلة وعرض الآراء المختلفة ، (والثاني) في فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الصحابة ، وفيه رد شبه واعتراضات على على هذا التفضيل ، (والثالث) في أن أبا بكر الصديق أفضل الصحابة بعد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه تفضيل الخلفاء الراشدين على ترتيبهم في الخلافة ، (وأما الخاتمة) ففي بيان تسوية الاسلام بين الناس كافة ، وفيه بحث في القرابة ومناقشة في تفضيلها .

وقد زين الكتاب بتعليقات مفيدة ، وذيل بتراجم الأعلام الوارد ذكرهم في الرسالة ، وختم بفهارس في الأعلام والجماعات والأماكن والكتب والآيات والأحاديث والأشعار والأيام المشهورة والموضوعات ومن ذلك كله تعلم ما بذله الأستاذ الناشر من جهد جهيد ، ووقت ثمين ، أثابه الله تعالى .

محمد بهجة البيطار

فهرس الجزء الاول والثاني

من المجلد السابع عشر

الصفحة